بسم الله الرحمن الرحيم

ذو النون إمام التصوف المصرى فى عصره

تمهيد : يعد ذو النون المصرى من أئمة التصوف الكبار فى القرن الثالث الهجرى وهذا يتضح بجلاء من كتب التراجم والطبقات (١) التى تناولت سيرته والتى تجمع

---

(١) التراجم التى كتبت عن ذو النون

الكلباوى : المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م . التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق: د . عبدالحليم محمود وطه عبدالباقى سرور ص ٢٨ القاهرة ١٩٦٠م - ابوطالب المكى المتوفى سنه ٣٨٦ هـ / ٩٩٧ م . قوت القلوب . القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - عبدالرحمن السلمى المتوفى ٤١٢ هـ / ١٠٢٣ م ص ٨ القاهرة ١٩٤٥ القشيرى المتوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ / ١١٧٦ م . الرسالة تحقيق د . عبدالحليم محمود ومحمود الشريف ج ١ ص ٦٧ - الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م احياء علوم الدين ج ٤ جاء به أقوال متفرقة فى مذهب ذو النون الصوفى تحقيق د . بدوى طبانه القاهره ١٣٣٤ هـ - محيى الدين بن عربى المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى مخطوط بسراى أحمد الثالث (١٣٧٨ هـ / ١٩٥ ورقة توجد منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات - القاهرة تحمل رقم ٤٢١ تاريخ - وقد قمت بتصويره والأحتفاظ به وقد جاء به تفصيلات عن سيرة ذى النور ومذهبه الصوفى ومكانته فى عصره - أبوبكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م - السر المكنون فى مناقب ذى النون مخطوط مكون من ٩٦ ورقة - مكتبة باريس ٢٠٤٣ بعنوان المكنون فى مناقب ذى النون - فجد (٤٤٤١) - كشتربيتى (٤٨٦٥) ضمن مجموعة الأوراق من ١ : ٧٨ . نسخ عام عام ١١١٤ هـ - لم استطيع الحصول عليه نظرا لوجوده فى مكتبات خارج القطر .

- قصة العباس بن حمزه النيسابورى المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م مع ذى النون المصرى . قد أملاه ذو النون على العباس بن حمزه ويرويه ابى بكر أحمد بن الحسن البيهقى المتوفى ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م توجد منه نسخة بمكتبة ليبزج بألمانيا الشرقية تحمل رقم ٧٨٥ / ٤ (من ٥٩ ب - ٧١ ب) ولم يتيسر لى الاطلاع عليه نظراً لعدم امكانية تصويرها لوجودها خارج القطر - مقام ذى النون بين الملوك فى كتاب (مكارم الأخلاق مجهول المؤلف يوجد بمكتبة البنغال مخطوط فى خمس ورقات . ولم اتمكن من الاطلاع عليه . عبدالوهاب الشعرانى المتوفى فى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م الطبقات الكبرى ج ١ تحقيق عبدالقادر احمد عطا القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م - عبدالرؤوف المناوى - الكواكب الدرية فى

على أنه كان صوفيا كاملا متمتعا بمكانة مرموقة بين معاصريه من العلمـــــاء والصوفية فى العالم الاسلامى عامة وفى مصر خاصة • فقد كان له دوره الرائد فـــى إرساء أسس التصوف السنى النظرى ، وتوضيح معالم الطريق إلى الله ورسم معالمـه وآدابه • فله حديث طريف عن النفس الإنسانية ومجاهداتها عن طريق الرياضيـــات العملية كالذكر والسماع والعزلة والخلوة والحج والصمت وغيرها •

= فى مناقب السادة الصوفيةص ٢٣٢ القاهرة سنة ١٩٣٨ الزركلى الأعـــلام ص ٨٨ الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م ـ ابن العماد الحنبلى • شذرات الذهب ص ١٧ مكتبة القدس القاهرة سنة ١٣٥٠ م اسماعيل البغدادى : هدية العارفين ص ٢٤٩ استانبول سنة ١٩٥١ م ابن النديم الفهرست ص ٥١٧ ابونعيم الأصبهانى حلية الأولياء جـ ٩ عشرة صفحات متفرقة ـ ابن خلكان وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٢٦ البستانى دائرة المعارف جـ ٨ ص ١٤٥ بيروت ـ الخطيب تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٩٣ ـ التهذيب لبن عساكر جـ ٥ ص ٢٧١ ـ القفطى : تاريخ الحكماء ص ١٨٥ ـ أبن حجر : لسان الميزان جـ ٢ ص ١٠٧ ـ اليافعـى مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٣٩ ـ فؤاد سزكين ـ تاريخ التراث العربى جـ ٢ ص ٤٤٤ نقله إلى العربية د • فهمى أبو الفضل و د • محمد حجازى ـ الهجويـــرى كشف المحجوب ـ ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ ـ جلال الدين الرومى المثنـــوى ـ ترجمة س • أ ولسون جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٨ لندن ١٩١٠

Carl Berockelmen: Gestchichte Der Arabischen Litteratture. I. 353.

Louis Massignon: Essai Sur les Origines Du Lexique technique de la mystique musulmane, Paris 1922.

نيكلسون : الصوفية فى الإسلام ـ القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م ترجمة نورالدين شريبه • نيكلسون فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٩ القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩ م

والرياضيات الروحية والتحقق بمقامات السلوك الصوفى كالتوبة والصدق والإخلاص والرضا والمحاسبة والمراقبة • والزهد واليقين • والخوف والرجاء وغيرها من المقامات والأحوال كالأنس والفناء وغيرها والتى كان له السبق فى تناولها بالتحليل والتفصيل مبينا أن المتحقق بها تصفو نفسه وتتطهر سريرته وتسمو أخلاقه ويتهيأ قلبه لتلقى المعرفة الذوقية الشهودية•

ولا ريب أن القارئ لمذهب ذى النون الصوفى يتستطيع أن يلمس بوضوح الجهد الذى ساهم به فى جعل التصوف الإسلامى مذهبا تربويا يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها تربية دينية معمقة لتزكية جانب الخير فيها وتطويع النفس الامارة بالسؤ للنفس المطمئنة حتى يغلب فيها الخير وتتبدل صفاتها الذميمة بصفات حميدة وحتى تتهذب أخلاقه وترق مشاعره ويصفو قلبه وتطمئن نفسه ويتأدب بآداب الشرع ويصير صوفيا كاملا متحققاً بالكمال الأخلاقى متقربا إلى الله محبا له مطيعا لأوامره شاكرا نعمه راضيا بقضائه مخلصا فى عبادته • متوكلا عليه • ذاكرا له متوجها اليه وحده زاهدا فيما سواه متهيئا للاتصال الروحى به والمثول فى حضرته متلقى المعارف التى يفيضها على قلبه من لدنه تعالى دون واسطه من حس أو عقل •

وقد أوضح ذو النون طريقين للمعرفة بالله التى آفاض الحديث عنها مبينا مناهجها وأدواتها ودرجاتها وطرق المجاهدة والرياضات التى يأخذ بها الصوفى نفسه حتى تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويسير اهلا لتقبل المعرفة الذوقية من الله وهذا الطريق يكون عن تعمد وإراده من السالكين • أما الطريق الثانى فهو طريق المجتبين أو المجذوبين الذى يصطفيهم ربهم ويكشف لهم عن وجوده ابتداءً فيطلعهم على معرفته تعالى دون تعمد منهم ولا إجتهاد ثم بعد أن يتحققوا بمعرفة الله تعالى يأخذون أنفسهم بالمجاهدات والرياضات لتهذيبها ليكونوا اهلا لتلك المعرفة وهذا ما سيأتى الحديث عن تفصيلا فى تناولنا للمعرفة عند شيخنا المصرى •

والدارس لمذهب ذى النون الصوف ونظريته فى المعرفه والمحبه والزهد يتبين أنـــه أضاف الكثير إلى أقوال زهاد القرنين الأوليين للهجرة كالحسن البصرى المتوفى سنه ١١٠هـ/ ٧٢١ م ورابعة العدوية سلطانة العشق الإلهى المتوفاة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م • ومعروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١١ م وغيرهم من الزهاد الأوائل الذين وردت أقوالهم فى كتب الطبقات الصوفية كالرسالة القشيرية واللمع للطوسى وغيرها • وكانت رابعة العدوية قد مهدت طريق المحبة بما تغنت به فى مذهبها فى الحب الإلهى شعرا ونثرا مما أفاد منه من جاء بعدهـــا وتأثر به ذو النون وغيره من الصوفية •

ويقول نيكلسون (١) والمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي (٢) أنه ظهر عند ذى النـــون الخصائص التيوزوفيه (٣) للتصوف فى صورتها الأولى • أما فؤاد سزكين فيقول " يقوم اتجـــاهه الأساسى فى التصوف على الغنوصية Gnosticism (٤) ولكنه ظل فى إطار أهل السنه ، وأنـــه تعرض بسبب آرائه الصوفيه لهجوم المالكيه وهجوم المؤرخ عبدالله بن عبدالحكم كما هاجمته المعتزله لقوله بقدم القرآن (٥) •

---

(١) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٣٩

(٢) د • محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٠٤ •

(٣) التصوف التيوزوفى هو التصوف الإشراقى الذى يدور المذهب الرئيسى فيه على اتحـــاد العبد بالرب •

(٤) الغنوص Gnosis فى أساسه معرفة أشياء دينيه تسمو على مستوى عامة المؤمنيـن أو على مستوى العقيدة الرسمية والغنوصية مذهب تلفيقى يجمع بين الفلسفة والديـــن ويقوم على أساس فكرة الصدار ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض ويشمل على طائفة المضمون بها على غير أهلها وفيه تلتقى الافكار القبلية بالأفلاطونية الحديثة وبعـــض التعاليم الشرقية كالمزدكية والمانوية • وكان له أثره فى التفكير الفلسفى فى المسيحية والاسلام انظر د • ابراهيم مدكور المعجم الفلسفى ص ١٣٣ •

(٤) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ٤٤٤ •

(٥) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٠٤ •

وقد يكون ما حملهم على هذا القول ما جاء على لسان ذى النون من عبارات قليلة استطاعوا ان يستشفوا منها ذلك مثل قوله : " معاشرة العارف كمعارشة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا باخلاق الله " (١) ففى هذه العبارة يذهب ذو النون الى ان العارف بالله حسن العشرة لأنه يتخلق باخلاق الله ولذا فهو يتشبه به تعالى فى تحمله وصبره على الناس والصفح عنهم على قدر إمكانه. وصوفينا يعرف تماما ان القياس بين العارف والله تعالى مع الفارق الشديد . فالله سبحانه وتعالى لاشبيه له ولا مثيل . غير أن تلك العبارات ، التى لايجب على من يسمعها أخذها على ظاهرها ، إعتبرها من كتبوا عن ذى النون صورة أولى للتصوف التيوزوفى الذى ظهر بوضوح لدى البسطانى المتوفى سنة (٢٦٠ هـ /٨٧٥ م) والذى كان معاصرا لذى النون وكان على صلة به . وهو صاحب نظرية الفناء التى أدت إلى القول بنظرية الاتحاد .

ولما كان صوفينا أول من تكلم علانية فى التعاليم الصوفية (٢) كما كان أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى الطريق (٣) وقال عنه إبو المحاسن (٤) أنه أول من تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية . وكان أهل مصر فى زمانهم لم يكن لهم بمثل ما إشتغل به من

---

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ـ مخطوط بمعهد المخطوطات يحمل رقم ٤٢١ تاريخ ل ٤١ .

(٢) ورد فى كتاب نفحات الأنس وفى الكتاب الثانى من مثنوى جلال الدين الرومى قصة طويلة تشير الى الشكوك التى ولدها مذهب ذى النون وكيف كان ينظر اليه على أنه مجنون

(٣) نفحات الأنس ص ٢٦ ومابعدها ـ دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ٤١٩ مقاله د . محمد مصطفى حلمى عن ذى النون .

(٤) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٥٣ .

علوم الصوفية سابق عهد أو كانوا - على حد تعبير المرحوم الدكتور مصطفي حلمى - على أقل تقدير عند أول عهدهم بمثله ، الامر الذى ترتب عليه أن ثاروا عليه ونسبوه الى الزندقة.

ويذكر السيوطى أن أهل مصر قد أنكروا على ذى النون وقالوا أنه أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة ، هذا بالاضافة الى أن بعض فقهاء مصر فى ذلك الوقت ، واهل الحديث بصفة عامة وفقهاء أخميم بلدته بصفة خاصة قد تعصبوا ضده (١) وكان ذو النون على خلاف معهم بسبب هجومه عليهم فهو يرى أن أهل الفقه والحديث لولا أن دخل عليهم نقص لكانوا أفضل الناس وهذا النقص الذى أشار إليه يتمثل فى أنه يرى أن هؤلاء العلماء يخضعون للمخلوقين دون الخالق ويدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق (٢) وربما يرجع تعصب أهل الفقه والحديث ضد شيخنا الى غيرتهم منه ومن مكانته العلمية بين علماء عصره مما جعلهم ينسبون اليه الكفر والزندقة مثل أوأليزيد البسطانى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٢ م) وابن الفارض (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ٨٤٣ م) ومحيى الدين ابن عربى (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) وغيرهم . فهو فى عداد الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة وهذا ما سيتضح لنا بجلاء عند عرض مذهبه الصوفى فهو يحرص دائما على تأكيد ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنه رسوله ، وقد شهد له الخليفة المتوكل العباسى بذلك عندما التقى به ببغداد .

والحقيقة أن الالتزام بالكتاب والسنه هى سمه التصوف المصرى على مر التاريخ الإسلامى وقد كان لمذهب ذى النون الصوفى تأثير واضح فيمن عاصره من الصوفيه وفيمن جاء بعده منهم . فقد تأثر به سهل ابن عبدالله التسترى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٤ م) وابو

---

(١) يذكر د . مصطفى حلمى فى دائرة المعارف جـ ٤ ص ٤١٩ أن فقهاء اخميم ركبوا مركبا ذاهبين إلى سلطان مصر ليشهدوا بكفر ذى النون فانقلب بهم الزورق والناس ينظرون أنظر أيضا المناوى - الكواكب الدرية جـ ١ ص ٢٢٣ .

(٢) الشعرانى الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٧٩ .

تراب النخشبي (المتوفى ٢٤٥ هـ / ٨٥٦ م) وأبو عبدالله بن الجلاء الذى كان من أكابر مشايخ الشام وصحبه وهو بغدادى الأصل ..... وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز (المتوفى عام ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م) وهو من أصحاب ذى النون أيضا إسحق بن ابراهيم السرخسى (المتوفى ٢٩١ هـ / ٨٠٢ م) والذى روى بعض أقوال ذى النون وأبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى (المتوفى ٣٠٤ هـ / ٩١٥ م) وقد صحب ذا النون وكذلك كان لأصحاب ذى النون ايضا تأثيراً عليه فى حياته وفى مذهبه (١) . كما يظهر تأثير ذى النون لدى الجنيد البغدادى (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ / ٣٠٨ م) والغزالى (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) وغيرهم من الصوفية اللاحقين عليه ويقول السلمى أن الكل أخذ عنه وتأثر به .

سيرتـــه ومصنفاتـــه :

١ - إسمـــه : جاء بكتب التراجم أن إسمه ثوبان بن ابراهيم (٢) وقيل الفيض بن احمد (٣)

٢ - لقبـــه : يلقب بذى النون (*) المصرى (٤) وقيل أنه سمى ذو النون لأنه أخرج طفـــل كان تمساحا فى النيل كان قد إبتلعه فلما رأى فزع أمه عليه طلب من النيل إخـــراج التمساح وشق بطنه وأخرج الطفل سليما فسمى بذى النون تشبها بسيدنا يونس عليه السلام عليه السلام الذى سمى بذى النون لقصته المعروفة مع الحوت فقد كان لصوفينا قصة مـــع التمســـاح تشبه قصة يونس مع الحوت .

٣ - كنيتـــه : يكنى أبو الفيض .

(١) أنظر وفيات الأعيان لابن خليكان ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) انظر كتب التراجم السابقة ص ١ و ٢ من هذا البحث .

(٣) محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ورقة ٤ .

(*) هناك من يُطلق عليه أسم ذو النون مثل إسماعيل بن الظافر بن عبدالرحمن بن ذى النون وهو من قبائل هواره ورأس سلفه من الدوله المارونية وكانت رياسته فى شنترية ثم تغلب على حصن افلنتين ارمان . فتنة الاموية هناك سنة ٤٠٩ هـ - أنظر دائرة المعارف للبستانى ج ٨ ص ١٤٥ .

(٤) أنظر كتب التراجم السابقة .

٤ ـ تاريخ مولده : تكرم أستاذنا الدكتور المرحوم محمد مصطفى حلمى فى تعليقه على مادة ذى النون بدائرة المعارف الإسلامية [١] واشار الى أنه لايكاد يذكر أحد من المؤرخين والمترجمين شيئا عن التاريخ الذى كان فيه مولد ذلك الصوفى . كما ذكر أن السيوطى فى ترجمته لحياة ذى النون ذكر أن عمره قد قارب التسعين [٢] واستطاع أن يستخلص من معرفة تاريخ وفاته ٢٤٥ هـ أنه ولد حوالى سنة ١٥٥ هـ [٣] غير أنى وقعت على تاريخ مولده مذكورا فى " تاريخ التراث العربى " لفؤاد سزكين الذى قال أنه ولد سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م) [٤]

٥ ـ بيئته الخاصة :

ولد ذى النون من أبوين نوبيين فى قرية أخميم فى صعيد مصر وكان أبوه مولى لاسحق بن محمد الانصارى القرشى وله ثلاثة أخوة ذكور هم : ذو الكفل . وعبد البارى . وعبد الخالق . وكان ذو النون نحيفا تعلوه حمرة وكانت له لحيه ليست بيضاء الشعر . أولع منذ صغره بطلب العلم وحفظ القرآن كما درس الفقه والحديث والفلسفة والكيمياء القديمة والطب وكان ذو النون شاعرا ومحدثا وكان شقران العابد أستاذا له وشيخه فى الطريق . كما كان استاذا آخرا يدعى إسرافيل . وقد ذكر ذلك السراج الطوسى فى كتابه اللمع وله استاذه تدعى فاطمة النيابورية سياتى الحديث عنها بعد .

وقد ألم النون بكل أنواع العلوم والمعرفة التى سادت فى عصر . وجاء فى دائرة المعارف أنه كان صالحا زاهدا عابدا ومن أولياء الله المشهورين واحد أصحاب الطرق وأكملها فى زمانه وكان متفردا في العلم والورع والادب والحكمة والفصاحة وكان صاحب كرامات .

(١) د . محمد مصطفى حلمى : تعليق على مادة ذى النون ـ دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ٤١١ .

(٢) جـ ٤ ص ٤١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٢ . وانظر السيوطى ـ حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٨ .

(٤) ذكر هذا التاريخ أيضا د . اسامه كامل حسن فى رسالته عن ذى النون المصرى وتصوفه ص ٢ ـ رسالة ماجستير تحت اشراف الدكتور ابوالفا التفتازانى .

وكان ذو النون مولعا بالأولياء والمشايخ وكانت لهم بهم صلات قوية ومن أصحابه محمد به على الحافظ الصوفى والذى التقى به فى الاسكندرية وابو عبدالله بن الجلاء الذى قال عن ذى النون : " لقيت ست مائة شيخ مالقيت فيهم مثل أربعه : ذو النون ، وأبى تراب النخشى وأبى عبيد البسرى و أبى " (أى والده) [1] ومن أصحابه أيضا يوسف بن الحسن شيخ الرى وأبى سعيد الخراط من أهل بغداد المتوفى سنة ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م ومحمد بن سهل التسترى (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٦ م) وغيرهم .

وقد ترك ذى النون قريته الى القاهرة التى تشير اليها كتب التراجم باسم (مصر) وكانت تسمى (الفسطاط) وقد روى عبد الرؤوف المناوى سبب تركه لقريته فى " الكواكب الدرية " قائلا : " إن ذا النون سمع ذات يوم من أيام إقامته باخميم صوت لهو ودفاف . فقال : ماهذا ؟ قيل : عرس . ثم سمع بجانبه بكاء وصياحا . فقال : ماهذا؟ قيل فلان مات . قال أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا . الله على إن بت بهذا البلد فخرج فورا الى مصر فقطنها [2] .

وهذا التصرف منه يدل دلالة واضحة على أنه كان انسانا متزنا متدينا فى شبابه بحكم نشأته فى بيت صالح وبيئة اسلامية . غير أنه لم يكن متجها لسلوك طريق الصوفية حتى أن اجتباه الله واطلعه على معرفته سبحانه معرفة قلبيه ذوقيه . فكان ذلك دافعا قويا له لسلوك طريق القوم . فبدأ بالتوبة وجاهد نفسه حتى صار صوفيا كاملا . قال تعالى : الله يجتبى إليه من يشاء . ويهدى اليه من ينيب " (س الشورى آية ١٣) فالطريق الصوفى إما أن يبدأ بمجاهدة النفس والتحقق بالرياضات الروحية واصطناع الرياضات العملية حتى تسمو

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ١١٤ . ماقاله للدكتور مصطفى حلمى عن ذى النون .
(٢) جـ ١ ص ٢٢٣ .

النفس ويصفى القلب ويتحقق السالك بالكمال الأخلاقى ويصل الى التحقق بالمعرفة الذوقيـــة القلبية • وهذا هو الطريق الصاعد • واما أن يبدأ بالمعرفة فيجذبه الله ويطلعه على معرفه ذاته العلية من لدنه تعالى دون تعمد منهم أو اكتساب أو اجتهاد ثم بعد ذلك يسلك طريـق المجاهدة ويغير من سلوكه ويتحقق بالمقامات والاحوال الصوفية • وهذا هو الطريق الهابط[1]

ويروى شيخنا قصة توبته قائلا : " خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريـــق • ثم انتبهت وفتحت عينى فإذا انا بقنبرةٍ (أى طائر) عمياء سقطت من شجرة علـــى الأرض فإنشقت الأرض فخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة ، وفى إحداهما سمـم وبالأخرى ماء فأكلت من هذه وشربت من هذه • فقلت حسبى !! تبت • ولزمت الباب إلـــى أن قبلنى "[2]

فبعد أن رأى ذى النون بعينى رأسه هذا المشهد الذى أطلعه عليه الله كى يجتبيه عرف ربه حق المعرفة وتحقق باليقين الكامل وامتلئ قلبه بنور المعرفة الذوقية اليقينية • وبذلك يكون قد سلك الطريق الهابط الذى يبدأ بالمعرفة الالهية ثم ينتهى بالمجاهدة ومنذ تلـك اللحظة صار ذو النون فى الطريق الصوفى وسلكه كما سبق أن ذكرنا على يد شيخه شقران العابد ويقول ذو النون : "كنت شابا صاحب لهو ولعب ثم أنى تبت وتركت ذلك كله "[3] وهـــو يعنى باللهو واللعب قياما على حياة الزهد والتعبد التى عاشها بعد ذلك كما ذكر محيى الدين بن عربى فى الكوكب الدرى أن له أستاذة تدعى فاطمة النيسابوريه (المتوفاة سنـــة ٣٢٣ هـ / ٨٣٤ م) التى قال عنها ذو النون : أنها ولية من أولياء الله وهى أستاذتى وقـــد تكلمت فى الصدق والاخلاص والاحسان وقال لها ذو النون عظينى فقالت له الزم الصدق وجاهد

---

(١) د. ابو التفتازانى - ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ط ٢ ص ٢٨٠ •

(٢) محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٠

(٣) المرجع السابق نفس اللوحة •

نفسك في أفعالك " وكان قد التقى بها في مكة المكرمة وأخذ عنها وتكلم معها في مقامات أهل الولاية [١] . ولا شك أن ذى النون قد تعلم منها وأستفاد حتى أنه قال عنها " وهي أستاذتى " .

ويروى محيى الدين ابن عربى ان صوفينا كان أول من تكلم في طرريقة الصوفية وبرع وسما على المجتهدين في العبادة ففتح عليه الله في المعرفة . وظهر عنه في العلم مالم تبلغه أفهام أهل وقته فسموه زنديقا . وبعثوا به الى أمير المؤمنين المتوكل العباسى وكان ذلك سنة أربع وأربعين ومائتين [٢] .

وقال عنه أبو الفلاح بن العماد [٣] : "كان له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم في مصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية فانكر عليه فقهاء المالكية ، وعبدالله بن الحكم - وهو كما جاء في كتاب (تاريخ التراث العربى " [٤] مؤرخا - ووشوا به الى المتوكل الذى اتهمه بالزندقه فاستحضره من مصر الى بنداد مقيدا . كما هاجمته المعتزلة لقوله بقدم القرآن [٥]

قال ذو النون يروى هذه الحادثة : " لما حُملت الى بغداد رُمى بى مقيدا على باب السلطان فمرت بى امرأة زمنة (أى عجوز) قبل دخولى فقالت لى : إذا دخلت على المتوكل لاتهابه ولا تراه فوقك . ولاتحتج لنفسك ، محقا كنت ، أو متهما . لأنك إذا هبته سلطه الله عليك . وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالا . فإن كنت بريئا ، فادع الله ينتصر لك ولا تنتصر لنفسك فيكلك اليها [٦] وقد فعل ذو النون ما نصحته به العجوز .

---

(١) ل ١٢٢ ظ - ١٢٣ و .
(٢) محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى ل ١٢٣ .
(٣) شذرات الذهب ص ١٧ .
(٤) فؤاد سزكين ج ٢ ص ٤٤٤ .
(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٦) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢٢ .

ثم يروى ذو النون ماحدث منه بين الخليفة المتوكل قائلا : " وعندما أدخلونى سلمت على الخليفة فقال لى: ماتقول فيما قيل فيك ؟ فسكت وقال وزيره: هو عندى حقيق بما قيل فيه. ثم قال لى (أى الخليفة) لم لاتتكلم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، اذا قلت لا. أكذبت المسلمين فيما قالوا. وان قلت نعم كذبت على نفسى بشيء لايعلمه الله تعالى منى. فافعل ماترى ، اننى غير منتصر لنفسى ، فقال أمير المؤمنين : هذا رجل بريء مما قيل فيه"(١)

وقد طلب الخليفة من ذى النون ان يعظه فقال له: " يا أمير المؤمنين ، رجل يعلم ان الله خلقه وخلق الجنة من أجله ان طاعه وخلق النار من أجله ان عصاه ، لايكون على مثل ماروميت به من البدعة ، ولا مثل ما أنتم عليه من الغفلة" ، فخلى عنه وبكى وصار المتوكل يحبه منذ ذلك التاريخ ويقدره ويقول عنه: اذا ذكر اهل الورع فحى هلا بذى النون(٢).

وليه كراماته الكثيره التى ترويها كتب التراجم والطبقات:

روى ابن جعفر صديق ذى النون قال: " كنت عند ذى النون المصرى فتذكرنا حديث طاعة الاشياء للاولياء. فقال ذو النون " من الطاعة ان اقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ، ثم يرجع الى مكانه فيفعل ، فقال : فدار السرير فى اربع زوايا البيت وعاد الى مكانه وكان هناك شاب أخذ يبكى حتى مات فى وقته "(٣).

وروى ان تقاتل اثنان احدهما من اولياء السلطان والآخر من الرعية. فعدا الذى من الرعية عليه ، فكسر ثنته ، فتعلق الجندى بالرجل وقال : بينى وبينك الامير فجازوا بذى النون فقيل لهم اصعدوا الى الشيخ فصعدوا ، فعرفوه ماجرى فأخذ السن المكسورة ثم بلها

---

(١) محى الدين ابن عربى ، الكوكب الدرى ل ٢١ ٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس اللوحه.

(٣) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٨٨.

بريقه وردها الى فم الرجل فى مكانها وحرك شفتيه.فتعلقت باذن الله تعالى ، فبقى الرجل يفتش فاهه فلم يجد أسنانه الا سواء[1] .

ولامجال لحصر ماروى عن صوفينا من كرامات . أو ماروى هو من كرامات من التقى بهم من اولياء الله الصالحين ، ومن يريد المزيد فى هذا الخصوص فليرجع الى " الرسالة القشيرية" وكتاب "طبقات الصوفيه "لعبد الوهاب الشعراوى وغيرها من كتب الطبقات.

٦- مكانته وعصره وثقافته :

يمكن ان نستخلص مما ذكر عن ذى النون فى كتب التراجم المختلفة انه كان له شأن عظيم ومكانه رفيعة ، فقد استهل ابو نعيم الاصبهانى ترجمته بقوله: " العلم المضى ، والحكم المرضى ، الناطق بالحقائق الفاتق للطرائق ، له العبارات الوثيقة والاشارات الرقيقة ، نظر فعبر ، وذكر فازدجر . أبو الفيض ذو النون ابراهيم المصرى رحمه الله"[2] .

وقال عنه المناوى: " ذو العبارات الوثيقة والاشارات الرقيقة والصفات الكاملة، والنفس العالمة والهمم الجلية والطريقة المرضية ، والمحاسن الجزيلة المتبعة ، والافعال والاقوال التى لاتخشى منها تبعه. زهت به مصر وديارها واشرق بنوره ليلها ونهارها[3] .

كما كان لذى النون مكانة خاصة عند الخليفة المتوكل العباسى كما ذكرنا من قبل؛ وقد تأملت هذه المكانة فى نفوس الناس بعد تبرأته من الوشاية .

وعن ثقافة ذى النون يقول المرحوم الدكتور مصطفى حلمى ، ان ذا النون كانت له ثقافتان: أحدهما ثقافة علمية دينية ، والاخرى ثقافة علمية دنيوية وان لهاتين الثقافتين أثرهما فى تكوين حياته الروحية.

---

(١) الرساله القشيرية : ج ٢ ص ٧١٠.

(٢) حلية الاولياء ج ١ ص ٢٣١.

(٣) أنظر المرجع السابق ص ٢٣٢.

أما الثقافة العلمية الدينية فتتبين اذا عرفنا أنه تلقى علوم الشريعة والحقيقة عن بعض أساتذته حينا ، وعن طريق الرواية حينا آخر على اننا لانعرف من أساتذته كما سبق وذكرنا ذلك الا شقران العابد واسرائفيل المغربى ، وفاطمه النيسابوريه ، كما انه تأثر وأثر في علماء عصره الذين التقى بهم وخاصة الامام احمد بن حنبل ، وبشر ابن الحافى ، والسرى السقطى ومعروف الكرخى ، وغيره ممن سبق ذكرهم.

وكان ذو النون من رواة الحديث روى عن مالك والليث وابن لهيعة ، والفضل ابن عياض وابن عيينة ، ومسلم الخواص وغيرهم ، وروى عنه الحسن بن مصعب النخعى ، واحمد بن صبح الفيومى ، والطائى وغيرهم (١).

وهكذا كان لشيخنا ثقافته الدينية الواسعة جعلت منه عالما فى الشريعة والتصوف والحديث ، وقيل عنه ان أحاديثه كانت ثقة (٢) غير ان البعض أشار الى ان أحاديثه ضعيفة وفيها نظر (٣) ، ويقول الاستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى أن ذا النون ، وان كان عالما بالحديث وراويا له ، فهو لم يشتغل به الى الحد الذى جعل منه شغله الشاغل ، بل لم يلبث ان انصرف عنه الى الاشتغال بنفسه ، وليس أدل على ذلك من انه سئل : لم لاتشتغل فى الحديث فأجاب بقوله " للحديث رجال : وشغلى بنفسى استغرق وقتى " (٤). فقد كان يحيا حياة روحية وتحقق بمقامات اهل الطريق ، وكان صاحب مذهب نظرى فى التصوف الى جانب ممارسته العملية للتجربة الصوفية.

أما الجانب العملى فى ثقافة ذى النون فيرجع الى انه كان من الدارسين للطب والكيمياء ومن المشتغلين بهما ، وكانت له مصنفات فى تلك العلوم كما سنرى بعد ، وكان

---

(١) أنظر عبد الرؤف المناوى: الكواكب الدرية ج ١ ص ٢٢٣.

(٢) محيى الدين بن عربى: الكوكب الدرى ل ٩ ٠.

(٣) عبد الرؤف المناوى : الكواكب الدريه ج ١ ص ٢٢٣.

(٤) دائرة المعارف الاسلاميةج ٤ ص ٤١٥.

ء الما باللغة السريانية ، ويقال انه وفق فى حل بعض الرموز والنقوش المرسومة على البرابى التى ادعى ذو النون انه قرأها وحلها .

عصره: وقد عاش ذو النون فى عصر الخلافة العباسية خلال فترة حكم الخلفاء ـ أبى جعفر المنصور ـ ومحمد المهدى ـ وموسى الهادى ـ وهارون الرشيد ـ ومحمد الأمين ـ وعبد الله المأمون ـ وأبى اسحق المعتصم ـ وهارون الواثق ـ والمتوكل بالله . وهم الخلفاء الذين حكموا فى الفترة مابين ١٥٥ الى ٢٤٥ . ولم يكن لأحد منهم تأثيرا على ذى النون سوى الخليفة الواثق لتمسكه برأى المعتزله فى خلق القرآن والخليفة المتوكل الذى حاكم ذو النون بتهمة الزندقة ، ثم برأه وأثنى عليه . وكان عصره حافلا بالثقافة وازدهار العلم فقد ظهر أئمة الفقه وعلماء الحديث وكثير من مشايخ الصوفية الذين تأثر بهم صوفينا . فكان عصره متقدما من الناحية العلمية والروحية والفقهية والادبية والعلمية ، وكان لذلك أثره على كل علماء وأدباء وفقهاء وصوفية هذا العصر . بما فيهم ذو النون.

وكان لذى النون سياحات زادت من ثقافته وعلمه داخل مصر وخارجها ، فى صعيد مصر والفسطاط وجبل المقطم والاسكندرية وتيه بنى اسرائيل بسيناء وبيت المقدس ودمشق وبغداد ومكه وأنطاكيه وجبال الكام ، ووادى كنعان وجبال نيسان (١) . وكان فى كل موطن ينزل به يلتقى برجال الطريق يأخذ منهم ويأخذوه عنهم.

وقد كان لذى النون تلاميذه الذين أخذوا عنه منهم ، يوسف ابن الحسين الرازى (المتوفى سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٢م) الذى اتصل به واستمع اليه واخذ عنه (٢) .

---

(١) ابن عربى ـ الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ـ ل ١٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ، ص ٤١٨ ، مقالة الدكتور محمد مصطفى حلمى.

لما كان له تلميذ فى الكمياء هو عثمان بن سويد أبو حرى الاخميمى (١)

١- وفاتــه وقبــــره :

اختلفت التراجم حول تاريخ وفاته: فجاء فى " شذرات الذهب " (٢) لأبن العماد أنــه توفى سنة ٢٤٤ هـ وجاء فى " الاعلام " للزركلى انه توفى سنة ٢٤٥ هـ (٣) ، أما فؤاد سزكين ذكر انه توفى ٢٤٦ هـ / ٨٦١ م ، وذكر انه ولد ١٨٠ هـ / ٧٩٧ (٤) ، أى انه عاش حسب ذلــك ٦٦ سنة فقط وليس ٩٠ ، كما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية (٥) ، نقلا عن السيوطـــى (٦) لذى قال فى ترجمته انه قارب التسعين وانه توفى سنة ٢٤٥ هـ . وقيل انه توفى سنة ٢٤٦ هـ وقيل سنة ٤٨ هـ (٧) وفى ترجمة محى الدين ابن عربى له أورد جميع هذه التواريخ السابقـــة وقال ان من أرخو لذى النون ، وذكروا تلك التواريخ المختلفة التى تتراوح مابين سنة ٢٤٤ هـ الى سنة ٢٤٨ هـ ، وقال انه توفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة سنة ست وأربعيـــن ومائتين (٨) والارجح انه توفى فى سنة ٢٥٤ هـ/٨٥٩ م فهذا التاريخ قد أجمعت عليه أغلـــب كتب التراجم والطبقات.

وقال عنه عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥ م) فى طبقاته الكبـــرى انه توفى بالجيزه وحمل الى قارب (ليعبر النيل) الى الضفة الاخرى ، مخافة ان ينقطع الجسر (كوبرى قصر النيل حاليا) من كثرة الناس فى جنازته. ورأى الناس طيورا خضراء علـــى

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٣٥٩.
(٢) ص ١٧ مكتبة القدسى ، القاهرة ١٣٥٠ هـ
(٣) ط ٢ ص ٨٢ ، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م كما ذكر هذا التاريخ ايضا اسماعيل - هديـــة العارفين ص ٢٤٩.
(٤) تاريخ التراث العربى جـ ٢ ص ٤٤٤ .
(٥) د . محمد مصطفى حلمى تعليق على مادة ذى النون جـ ٤ ص ٤١٢.
(٦) السيوطى - حسن المحاضره جـ١ ص ٢١٨.
(٧) ابن عربى - الكوكب الدرى - ل ٨و.
(٨) المرجع السابق ، نفس اللوحه.

جنازته حتى وصلوا الى قبره . ودفن بالقرافه الوسطى فى مقابر اهل التغير بالقسطاط

الـ ـاكتب حديثاً عن ذى النون :

الى جانب ما ذكرنا من كتب التراجم والطبقـــات والمستشرقين التى تناولت سيرة ذى النون ومذهبه فى هامش الصفحة الاولى والثانية ومن هذا البحث فهناك ابحاث حديثه تناولت سيرة ذو النون ونصوفه نذكر اهمها .

١ - مقاله للمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى بدائرة المعارف الاسلامية الترجمـــة العربية تعليق على مادة ذى النون تناول فيها سيرته وحياته ومذهبه الصوفى وهى مقاله قيمة ساهمت فى وضع الخطوط العريضة أمام الباحثين فى ذى النون المصرى ونصوفه الجزء الرابـــع تشغل من ص ٤٠٩ الى ص ٤٣٠ .

٢- رسالة ماجستير بعنوان " ذو النون المصرى وتصوفه " مقدمة من اسامة كامل حسن سنه ١٩٧٦ - تحت إشراف الدكتور أو الوفا الغنيمى التفتازانى وهى رساله قيمه وبها جهد لاينكر ولاشك أن هناك دراسات أخرى قد تعرضت لذى النون المصرى فهو شخصية مصرية رائدة لهـــا ثقلها فى التصرف الاسلامى لعامة والتصرف المصرى بخاصة .

مصنفات ذى النون : قـــد لا حظـــت مـــن خـــلال بحثـــى عـــن مصنـــات ذى النـــون أن منهـــا ما يـــوجد فـــى المـــانيـــا ما يوجد فى مكتبات فرنســـا ومكتبات بريطانيا والهند وتركيا وسوريا والسنغال وغيرها من مكتبات العالم كما لاحظـــت أن اغلب مصنفاته فى الكيماء ويطلق عليها " الصنعة الكريمة " وبعضها فى الطب والسحـــر وبعضها فى الحديث ومنها أدعيه ومنها ما يتناول الاخلاق الدينية والتصرف . وان مذهبـــه الصوفى لايجمعة مصنف بعينه وإنما هو مبعثر هنا وهناك فى كتب التراجم التى أهمها مـــا كتبه عنه الصوفى الكبير محى الدين بن عربى فى " الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى " (١)

(١) أرجع الى هامش الصفحات الاولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلـــك المصنفات وانظر أيضاً .

Corl. Berockelmen : Gertchte Der Arabischen Litterature. 1 . 353 .

وماكتبه عنه الحافظ السيوطى فى " السر المكنون فى مناقب ذى النون "[1] . وماكتبه عنه ابو نعيم الاصبهانى فى " حلية الاولياء "[2] ، هذا الى جانب ماجاء فى كتب التراجم التى ذكرت فى اول البحث . والحقيقة انه لايخلو كتاب من كتب الطبقات والتراجم القديمة الا وذكر صوفينا فى سطور تقل وتكثر من مصنف لآخر .

ولقد عبر ذو النون فى كثيرا من الاحيان عن مذهبه الصوفى بالشعر ، فقد كان صوفينا شاعرا . كما انه الف قصيدة فى الكيمياء وسيأتى الحديث عنها .

والحقيقة ان كل الدراسات التى تناولت ذى النون ومذهبه الصوفى ، تعد ناقصة بما فيها هذا البحث وذلك لسبب هام وهو ان ماكتبه ذو النون نفسه عن سيرته وتصوفه غير متوفر فى مصر ولاتصل اليه أيدى الباحثين فمعلوماتنا عن محتويات مصنفاته على الاقل ووصفنا لها يتطلب الحصول عليها وحتى يكون العمل مكتمل لابد من جمع تلك المصنفات من مكتبات العالم وتحقيقها وأخرجها الى النور وهذا يتطلب جهدا ووقتا وتكلفه قد لاتتيسر لأغلب الباحثين. والعزاء الوحيد لذلك ان ماستندت عليه من المحادر المتوفرة والتى امكن الحصول عليها أمكن عن طريقها تبين سرته ومذهبه الصوفى وهى محادر قديمة موثوق فيها . أما المصنفات فانى اكرر انها فى حاجة الى السفر للخارج لجمعها أو تصويرها والحصول عليها بأى وسيلة ممكنة.

وواضح انه من الصعوبة بمكان عمل تصنيف زمنى لمصنفات ذى النون أو تصنيف أبجدى لها . وكل ما أستطيعه هو عمل تصنيف بحسب الموضوعات وقد رأيت ان يكون التصنيف لمؤلفاته فى العلوم العملية كالطب والكيمياء . ومصنفاته فى العلوم النظرية كالتصوف والحديث والاخلاق الدينية.

---

(١) ارجع الى هامش الصفحات الاولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلك المصنفات وأنظر ايضا بروكلمان ملحق ١ ص ٣٥٣.

(٢) انظر ج ٩ ، فى ١٠ صفحات متفرقة.

أولا : مصنفاته في العلوم العملية :

(١) كتاب المجربات [١] : يضم وصفات فى الطب والكمياء والسحر والطلاسم. مكتبة باريس ٢٦٠٨ مكون من ٩١ ورقة كتب سنة ١٠٠٠ هـ ـ أنظر فجدا ٤٨٩.

(٢) قصيدة في الصنعة الكريمة [٢] : توجد منها نسخة بمكتبة باريس ٤/٢٦٠٩ (من ورقة ٤٧ ـ ٥١) كتبت فى القرن الحادى عشر الهجرى. أنظر فجدا ٧١٢ ، ونسخه بالمتحف البريطانى ، ٦٠١ ، الاضافات ٤/٧٥٩٠/ (من ورقة ٨٥ ـ ٩٠). كتبت سنة ١٢٠٦هـ ونسخة محورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٤٦/٤/٣ ، ونسخة فى مكتبة بودليا ٢٥٠/٢ رقم ٥٣٨ (من ورقة ١٥٠ ـ ١٥١) ، ونسخة بمكتبة جار الله ٢/٢١٣٠ (من ٢٣٥ب ـ ٣٦ أ) كتبت فى القرن العاشر الهجرى ـ ونسخة بمكتبة بشير ايما ٦٤٩ (من ٣٢ أ ـ ٣٣ب) قرن عاشر هجرى ، ونسخة بمكتبة باريس ٥٠٩٩ (من ورقة ١٨١ ـ ١٨٣) القرن العاشر الهجرى أنظر فيجدا ٧١٢.

وقد قامت على هذه القصيده شروح كثيره هى :ـ

أ ـ الدر المكنون فى شرح قصيدة ذى النون ـ تأليف ابن على الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م ، أنظر دار الكتب بالقاهرة ٣٩٣/٥ ، كمياء ٢٠ وهى (من ورقة ١ ـ ٤٣) ومنها نسخ متعددة من مكتبات مختلفة منها حاجى محمود ٦٢٢٥ ـ جار الله ٧/١٧٠٢ من ورقة ٦٨ ـ ٩٩) وكذلك ٢/٢٠٦٥ (من ورقة ١٧ أ ـ ٣٤) كتبت فى القرن الحادى عشر الهجرى ـ أسعد ١٩٣٢ (من ورقة ٣٣٧ أ ـ ٣٤٧ ب) كتبت سنة ٧٤٢ هـ ـ فاتح ٤/٣٢٢٧.

---

(١) فؤاد سزگين جـ ٢ ص ٤٤٤. ، ذكره بروكلمان ملحق ١ ص ٣٥٣.

(٢) الصنعة الكريمة ، يقصد بها الكمياء ، وقد ذكر هذه القصيده فى بروكلمان ملحق ١ ص ٣٥٣ وفؤاد سزگين جـ٢ ص ٤٤٤.

ب ـ ولهذه القصيدة شرح آخر قام به أحمد بن عامر الهمدانى الحاشدى (كتبه سنه ٨٥٥هـ/١٤٥١م) فاتيكان ، فيدا ٣/١٠٤٣ (من ورقة ٦٦ ـ ٨١ ـ أصفيه ١٤١٦/٢ ـ كمياء ٠٢٦

٣ ـ رسالة فى العناصر الثلاثة[١] : وهى باللغة الفارسية ، ـ راى احمد الثالث ٢٠٧٥ (من ورقة ٧٦ب ـ ٧٩ أ)٠

٤ ـ رسالة فى خواص الاكسير[٢] : فاتح ٥/٥٣٠٩ (من ورقة ١٠٥ أ ـ ١٠٩) القرن العاشر الهجرى٠

٥ ـ رسالة فى الحجر[٣] : أولها "يؤخذ الحجر الكريم عند نزول الشمس ٠٠٠٠ الخ " حاجى محمود ٩/٤٢٢٤ (من ٤٥ب ـ ٥٧ ب) القرن الثالث عشر الهجرى٠

٦ ـ رسالة فى الصنعة[٤] : أولها : " اذا احببت التدبير ٠٠٠٠ الخ " حاجى محمود ١٣/٤٢٢٤ (من ورقة ٦٤ ب ـ ٦٧ أ) القرن الثالث عشر الهجرى٠

٧ ـ رسالة الثقة فى الصنعة[٥] : المخطوط السابق (من ٦٧ أ ـ ٦٧ ب) ٠

٨ ـ رسالة فى الحكمة العظمى والصنعة المباركة[٦] : أولها : " أعلم ان تدبير (مدبر) الفلاسفة ليس يشترى بثمن " ، جازيت ٩٤٧ (١٥ ورقة) القرن التاسع الهجرى٠

---

(١) بروكلمان : ملحق ١ ص ٣٥٨ ، وانظر فؤاد ـ زكين جـ٢ ص ٤٤٦٠

(٢) المرجعان السابقان نفس الصفحات٠

(٣) المرجعان السابقان نفس الصفحات٠

(٤) المرجعان السابقان نفس الصفحات٠

(٥) المرجعان السابقان نفس الصفحات٠

(٦) المرجعان السابقان نفس الصفحات٠

الفلاسفة ليس يشترى بثمن " ، جازيت ٩٤٧ (١٥ ورقة) القرن التاسع الهجرى.

٩ - رسالة في تدبير الحجر الكريم[١] : أولها : قال ذو النون لتلميذه في تدبير الحجر ... الخ " حاجى محمود ٨/٤٢٢٤ (من ورقة ٤٩ أ - ٥٤ ب) القرن الثالث الهجرى.

ثانيا : مؤلفاته في التصوف والأخلاق الدينية والحديث :

(١) رسالة فى ذكر مناقب الصالحين[٢] : أصفيه ١٢/١ ، أخلاق ٣٢.

(٢) دعاء[٣] : رامبور ٣٢٧/١ ، دعاء ٢٩٢ (٢٧ ورقة).

(٣) صفة المؤمن والمؤمنة[٤] : مكتبة الظاهرية ، مجاميع ١١/٨٧.

(٤) له عدد من الاقاصيص التربوية بمكتبة برلين ٤٣٤٧: الاوراق من ٤٦ ب - ٦٩ أ).

القرن الحادى عشر الهجرى.

(٥) رسالة تتناول أقواله والاحاديث التى رواها مع موجز لحياته ، مكتبة برلين ١٣٩٧ الاوراق من ٥٦ - ٦٠) سنة ٨٧٨ هـ.

ويذكر فؤاد سزكين انه ينسب اليه كتاب يسمى " كتاب العجائب " غير ان نسبته غير مؤكدة - دار الكتب القاهرة يحمل رقم ٢٠ كمياء حرف م.ق أ ومنه نسخة مصورة فى برلين وقد أثبت الباحث اسامه كامل حسن صحة هذا القول وأثبت ان هذه الرسالة ليست لذى النون وأوضح ذلك بالادلة القاطعة[٥] ، كما اشار سزكين فى الهامش[٦] الى انه ليس لديه معلومات عن رسالة الكمياء وهى مخطوط بمكتبة اصفية فى الهند ١٤١٦/٣ - كمياء ٢٤.

---

(١) بروكلمين : ملحق ١ ص ٣٥٨. وانظر فؤاد سزكين جـ٢ ص ٤٤٦.

(٢) المرجعين السابقين نفس الصفحات.

(٣) المرجعين السابقين نفس الصفحات.

(٤) المرجعين السابقين نفس الصفحات.

(٥) انظر رسالته عن ذو النون المصرى وتصوفه ص ١٨ ، ١٩ تحت اشراف د. التفتزانى.

(٦) انظر فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربى جـ٢ ص ٤٤٦.

وذكر انه لابد من بحث الرسالة التي الفها ذو النون وشرحها الجلدكي بعنوان " السر المصون في شرح رسالة ذي النون " المتحف البريطاني مخطوطات شرقية ١٢١٤٩ [١] ، كما ذكر له ابن النديم في الفهرست كتاب باسم " الركن الاكبر " [٢] ، وكذلك ذكر في " هدية العارفين " [٣] .

مذهب ذي النون الصوفي

ان ذا النون المصري وغيره من الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنه قد بنوا قواعد أمرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع وتمسكوا بما كان عليه السلف الصالح من التوحيد الخالص. وكان ذو النون في مذهبه الصوفي سلفيا ملتزما رغم ماوجه اليه من اتهامات بانه زنديق . فقد كان يخشى المحظورات ولم يكن عنده تمثيل ولاتعطيل ولم يقل بالاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود أو وحدة الشهود وانما كان تصوفه خال من الشطحات وتلك كما سبق القول هي سمة التصوف المصري السني. وقد سئل عن التوحيد فقال " التوحيد هو ان تعلم ان قدرة الله تعالى في الاشياء بلا مزاج وصنعه للاشياء بلا علاج وعلة كل شيء صنعه. ولا علة لصنعه ، وليس في السماوات العلا ولا في الارضين السفلى مدبر غير الله. وكل ماتصوره في وهمك فالله بخلاف ذلك [٤] . ويتضح من هذا النص ان صوفينا لم يقل بالحلول أو الاتحاد ، وانما هو يؤمن ان الله واحد متعال خالق مبدع بلا مزاج وانه خلق الكون ومدبره دون منازع وانه تعالى لايدرك بالاذهان ولاتتصوره الاوهام فهو بخلاف كل تصور يتصوره الانسان .

---

(١) أنظر هامش ص ٤٤٧ في الجزء الثاني من كتاب سزكين.
(٢) أنظر ص ١٥٧.
(٣) انظر المجلد الاول ص ٢٤٩
(٤) محي الدين بن عربي: الكوكب الدري ل ٤٥ .

ويقول في شعره :

رب تعالى فلا شيء يحيط به .. وهو المحيط بنا في كل مرتصد
لا الاين والحيث والكيف يدركه .. ولا يجد بمقدار ولا أمـــل
وكيف يدركه حد ولم تـــره .. عين وليس له في المثل من احد
أم كيف يبلغه وهم بلاشبـــه .. وقد تعالى عن الاشباه والـولد
من أنشأ قبل الكون مبتدعـــا .. من غير شيء قديم كان في الابد
ودهر الدهر بالاوقات واختلفت .. بما يشاء فلم ينقص ولم يـزد

الكون

وكان له نظرية في مجاهدة النفس وفي المحبة والمعرفة وهذا مالنعرض له (١) .

وسيتضح لنا بجلاء من عرض مذهب ذي النون الصوفي انه كان صوفيا ملتزما بالشريعة فـي تصوفه ، ويربط ذو النون بين الحقيقة والشريعة أو بين علم الباطن وعلم الظاهر ويرى انهما أساس التوحيد مع التسليم لله سبحانه مقدر كل شيء والذي بيده النفع والضر . وقـال : " من لايعلم علم التوحيد لايفهم التشبيه من التعطيل ، ومن لم يعلم علم الظاهر لايفهـم الحلال من الحرام ، ومن لم يعلم علم الباطن لايصفو له العمل ولايقد رعلى الاخلاص. والتوحيد ، ان يعلم ان النفع والضر والعطاء والمنع والعز والذل بيد الله (٢) . ويبدأ مذهبه بمجاهدة النفس.

(١) مجاهـدة النفـس:

ان مجاهدة النفس والخلق الحسن من الامور التي حث عليها الله عباده وطالبهـم بالالتزام بها في مثل قوله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ان الله لمـع المحسنين " ، (س العنكبوت آيه ٦٩) وهي صفة الرسول الكريم (ص) الذي اعتبر الجهـاد ضد الاعداء ، هو الجهاد الاصغر وجهاد النفس هو الجهاد الاكبر لأنه جهاد الانسان ضـد نفسه ،لينقيها وينقحها من الاخلاق السيئة والاستسلام للاهواء والشهوات فهي أمراض تصيب

(١) أبو نعيم الاصبهاني: " حلية الاولياء" ج ٩ ص ٣٨٨ - ٣٨٩.
(٢) محي الدين ابن عربي: - الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري - ل٤٧ .

النفس الانسانية الضعيفة وعلى الانسان ان يجاهد لمداواة نفسه من أدران الرذيلة والخبائث. قال تعالى: " قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " (س الشمس آيه ٩).

ويقول صوفينا فى مجاهدة النفس: " ليس بذى لب من جد فى أمر دنياه وتهاون فى أمر آخرته، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، ولا من تكبر فى مواضع تواضعه ، ولا من فقد منه التقوى فى مواطن طمعه ، ولا من غضب من حق اذا قيل له ، ولا من زهد فى مارغب العقلاء فيه ، ولا من رغب فيما يزهد العقلاء فيه ، ولا من طلب الانحراف عن غيره لنفسه ، ولامن نسى الله فى مواطن طاعته وذكر الله فى مواطن الحاجة اليه ، ولا من جمع العلم ليعرف به ثم آثر عليه هواه بعد تعلمه ، ولا من قل منه الحياء من الله على جميل ستره ، ولا من أغفل الشكر على اظهار النعمة ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه ، ولا من جعل مرونة لباسه ولم يجعل أدبه درعه ، ولا تقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفا وتزينا فى مجلسه "(١).

وقد أبان ذو النون فى هذا النص عن الآفات التى يجاهد الانسان نفسه فى التخلص منها وهى تتلخص فى: حب الدنيا ، وترك الآخره ، وعدم الصبر ، والغرور والكبر ، وطمع النفس الذى ينسى صاحبه تقوى الله ، والغضب من الحق اذا قيل له ، والزهد فيما يقبل عليه العقلاء من العبادات ، والخير والطاعة ، والاقبال على مايزهدوا فيه ، والانانية ، والغفلة عن الله فى السراء وعدم ذكر الله فى السراء واساءة استخدام العلم ، وعدم الحياء من الله والغفلة عن شكره على نعمه ، والتقاعس عن مواجهة العدو والتباهى بفاخر الثياب دون تقوى الله ، والتفاخر بالعلم فى المجالس ، ومجاهدة النفس بالصلاة والصوم والذكر والسماع والعزله والخلوة ، وغيرها من الرياضات التى ترفق القلب وتهذب النفس وتبعث على الوجد والتأمل والتفكر فى الله ، كما يصطنع السالك رياضات روحية لتهذيب نفسه وتبديل صفاتها

---

(١) محى الدين ابن عربى : - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى - ل ٥٠ و.

الذميمة بصفات حميدة فيتحقق بالتوبة والزهد والصبر والتوكل والصدق والمحبه ومحاسبة النفس ومراقبتها والاحسان والتقوى والشكر والرضا والاستقامة والاخلاص وغيرها من المقامات الصوفية حتى يصل الى اعلى الدرجات. ويتحقق بالكمال الخلقي وتطهر روحه ويصفو قلبه وتتهيأ لمعرفة الله معرفة ذوقية كشفية ، ويصير صوفيا متحققا عارفا بالله ولذلك عرف شيخنا الصوفي بقوله : " الصوفي من اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكت نطقت عنه جوارحه بقطع العلائق"[1] ، وهذا يعني ان الصوفي انسان صفى قلبه من كدورات الشهوة والهوى[2] وتعلق قلبه بالله حتى استنار بنور الله سره وكشف الله له عن الحقائق المدركة في عالم الغيب فعرف الذات الالهيه وصفاتها واسمائها وافعالها. وعرف معنى العرش والكرسي والروح والملائكة ، وحقائق الموجودات في عالم الغيب والشهادة ، وعرف ترتيب الاكوان معرفة ذوقية من لدن الله ، مما جعله اذا نطق أبان عن تلك الحقائق ، وان سكت كان مع الله متأملا متفكرا ذاكرا له بروحه وسره متجها اليه تعالى بكل جوارحه ، وصار في حال اتصال روحي بالله وقطع العلائق بما حوله وفني عن نفسه وبقي بالله لايشهد غيره فبدى ذلك على جوارحه مع لزومه الصمت والكون.

ولم يكن شيخنا اول من عرف الصوفي والتصوف فقد سبقه الى ذلك معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ ، ويقال انه اول من عرف التصوف بقوله: " التصوف هو الاخذ بالحقائق واليأس مما في أيدى الخلائق "[3] وهو يعني ان التصوف يصل بالسالكين الى الحضرة الالهيه فينهلون من المعرفة النورانية ويطلعهم الله على الحقائق الذوقية. وهو

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية ص ١٠.

(٢) الهوى هو ماتهواه نفس الانسان من امور معنوية كالمناصب القيادية وحب الرياسة والظهور ، أما الشهوات فهي ماتشتهيه النفس من لذات حسيه كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها.

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ١٢ طبعة صبيح ص ١٢.

وهو عنده ايضا الزهد فيما عند الناس ، فالصوفى الحق هو من يزهد فيما عند الله ويحبه الله ويذهب فيما فى ايدى الناس فيحبه الناس.

وقال ذو النون ايضا : " الصوفية أثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء فكان من اثارهم ان آثروا علم الله على علم نفوسهم وارادة الله على ارادة نفوسهم"[1] .

ويوصى صوفينا المريد فى بداية الطريق قائلا " ياأخى وصيتك بالتقوى اللة العظيم والمراقبة له ، حيث لايراك احد الا الله واجتهد الى خلع قناع الغافلين وانتهى من رقدة الموت ، وفر الى السباق فى ميدان السابقين ولاتفتر عن الله"[2] فعلى السالك الطريق الى الله ان يخلع قناع الغفلة ويفر الى الله ليصل اليه ويصير من الواصلين.

ولا يصل الصوفى الى تلك المنزلة الا بعد ان يعبر طريق طويل فى سبيل مجاهدة نفسه ومحاربة الشر فيها وتزكية الخير ، حتى تتهذب وتسمو وتصفو ، ولايتأتى لها ذلك الا بالاقبال على العبادات والطاعات ، واجتناب التعلق باللذات الحسية والتقرب الى الله والانصراف عما يشغل عنه. ويقول ابن خلدون فى مقدمته: " الاصل فى التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذه ، ومال ، وجاه)[3] ، وبذا يتحقق للسالك ضبط النفس وكبح جماحها ومقاومة ميولها الشريرة وصرفها بالارادة والعزيمة عن متع الحياة الدنيا التى تشغل الانسان عن التقرب من ربه فيتم لها الصفاء والتطهر من اثران الشهوة الجسدية والهوى النفسى ليصير أهلا لتقبل الفيوضات الربانية.

---

(١) السهروردى : عوارف امعارف على هامش احياء علوم الدين للغزالى جا ص ٣١٩.

(٢) ابن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ، ل ٤٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٦.

ويحدثنا القشيرى فى رسالته عن الصوفية قائلا : " هذه الطائفة صفوة أولياء الله جعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الامة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق. صفاهم من كدورات البشرية. ورقاهم الى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية. فقاموا بأداء ماعليهم من واجبات التكيف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التغلب والتصريف ، ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى ، بصدق الافتقار ولفت الانكسار ، ولم يتكلوا على ماحصل منهم من الاعمال ، وصفا لهم من الاحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل مايريد ، ويختار من يشاء "(١).

وحقيقة مذهب ذو النون الصوفى فى مجاهدة النفس - وهو كما يقول مدار كلام الصوفية جميعا - يقول على اربعة امور هى :

(١) حب الجليل (٢) بغض القليل (٣) اتباع التنزيل (٤) خوف التحويل.

- والركن الاول من اركان مجاهدة النفس عنده يقوم كما هو واضح على حب الله سبحانه جلا جلاله وحب الجليل من الاعمال والاقوال والتصرفات الصالحة التى ارتضاها اللى لعباده المقربين والتى تزيدهم منه قربا وتزيده سبحانه حبا لهم. فحب الله وطاعته هى اول ركن من اركان مجاهده النفس عند صوفينا .

- والركن الثانى من اركان مجاهدة النفس هو " بغض القليل " من الطاعات والعبادات والاعمال الصالحة ، فمن يريد ان يسلك طريق الصوفية لايقنع بالقليل من العبادات والاعمال التى تقربه الى الله سبحانه ، وانما يكون محبا للاكثار منها .. ومهما أدى من طاعات وقربات لله فهو يستنقصها ويشعر انه مقصر فى حق الله وان اعماله لاتساوى شيئا ولاتعادل ما انعم الله عليه به من نعم متعددة.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢ طبعة صبيح ابن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ٤٢ .

واذا أكثر الانسان من الطاعات كف عن المعاصى وبذلك يتغلب نفسه المطمئنة على نفسه الامارة بالسوء ويفلح فى كفّ هوى نفسه وانقيادها للشهوات الجسدية وبذلك تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويصير آهلا للاتصال الروحى بالله عز وجل.

- الركن الثالث من اركان مجاهدة النفس عند شيخنا هو : " اتباع التنزيل " وهذا يعنى ان المريد الصادق فى احواله والصادق مع الله فى عبادته والتقرب اليه يجب ان يتمسك بكتاب الله وسنه رسوله الكريم ويلتزم بهما فى كل اعماله واقواله وتصرفاته. وهو يقول: " من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى اخلاقه وافعاله واوامره وسنته "(١).

ويعتبر شيخنا ان اكثر الناس هما هم اقلهم خلقا وان اكثر الناس سعادة هم اكثرهم خلقا ، ويقوم القشيرى فى رسالته: " قيل لذى النون المصرى: من اكثر الناس هما ؟ قال أسوأهم خلقا "(٢).

ويذهب ذو النون الى ان الساعى الى الله بقلب سليم عليه ان يصحب الله سبحانه بالموافقة أى لايقترف من المعاصى والمخالفات مايغضب الله تعالى: ويصحب الخلق بالمناصحة ، فيقدم لهم النصح والارشاد فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويصحب نفسه بالمخالفة ، فلا يتقاد لها ولامستسلم لما تأمره به من ارتكاب المعاصى والانغماس فى تحقيق اللذات والشهوات واتباع الهوى ، فيقودها الى طريق الخير ، ويصحب الشيطان بالعداوه ، فيكون له عدوا مبينا فلا يطيعه ولاينقاد له ، ويستعيذ بالله منه ، ويستعين عليه بالتقرب الى الله والاكثار من التعبد والطاعة له. يقول ذو النون: " لاتصحب مع الله الا بالموافقة ولامع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان

---

(١) محى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ٤٢ . الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٨٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٩.

ويرى شيخنا أن من جد فى طريقه الى الله بهمه صادقه وعزيمة لاتلين ، فانه يجد الله امامه منذ بداية سعيه المخلص فى الوصول اليه تعالى : ويقول فى ذلك: " أول قدم تطلبه ، تدركه وتجده "[1] . وهذا يعنى ان اول خطوة يخطوها السالك فى الطريق الى الحضرة الاهية سيجد الله امامه معينا له تمشيا مع قول الرسول الكريم (ص): " اطلب الله تجده امامك "[2] ومع قوله تالله تعالى : " واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان " (س البقره آيه ١٨٦).

ـ والركن الرابع من اركان مذهب صوفينا فى مجاهدة النفس هو " خوف التحويل " فالسالك طريق الصوفية يظل دائما فى خوف من ان يتحول قلبه او تفتر عزيمته فى مجاهدة نفسه أو يغفل عن ربه لحظة او يتكاسل عن اداء العبادات والطاعات أو ينشغل عن الله بامور الدنيا فلابد ان يراقب نفسه وان يحاسبها وان يحرص دائما على مواصلة السعى الى الله تعالى والتقرب اليه بحسن الافتقار وحسن العبودية وصدق اليقين ، وهذا ماسيتضح تفصيلا فى الحديث عن مقام الخوف عند ذى النون.

وقد قال ذو النون: " اذا خرج المريد عن استعمال الادب فانه يرفع من حيث أتى "[3] فللصوفيه آداب واخلاق يجب على من يريد السير فى الطريق الصوفى الالتزام بها والا تعثر عن السير فى الطريق.

وعلامة القلب المريض عند شيخنا أربعة اشياء :ـ

أ ـ لايجد للطاعة حلاوة ب ـ ولايخاف من الله

ب ـ ولاينظر الى الاشياء بالعبرة د ـ ولاينال من العلم الا ما تأدب به[4] .

---

(١) السلمى ـ طبقات الصوفية ص١٢ ـ الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٨٧.

(٢) شرح الكرمانى ٢٢: ١٨٣ ـ فتح البارى لابن حجر ١١ : ١٧٢ ـ عمدة القارىء للعينى وأخرجه مسلم فى الذكر والدعاء والبخارى فى الدعاء ٢ : ٣٣٦.

(٣) الرسالة القشيرية ج٢ ص ٥٦٣.

(٤) ابن عربى ـ الكوكب الدرى ـ ل ٤٣ .

وصاحب هذا القلب لابد له من العمل على تزكيته وتطهيره حتى يصفو فيجد للطاعة حلاوة ويخشى الله ويعتبر من كل شيء ويطلب العلم اللدنى والمعرفة الحقه ٠

والانسان العاقل عند شيخنا هو الذى يدرك كل مستحسن من الاخلاق وكل جميل من الصفات، فيسعى فى تحصيلها والتمتع بها ويقول : " لما خلق الله العقل جعل فيه لطيفة تميله إلى كل جميل " (١)

والارادة عند صوفينا هى بوابة الطريق الذى يسلكه المريد إلى الله فهو يذهب إلى أن المريد الصادق هو من يلقى علماء الدين ومشايخ الصوفيه بالجهل ويرى فى نفسه أنه أقل منهم علما وأنه فى حاجة الى ما لديهم من علوم ومعارف ٠ وأن يتطلع إلى الأخذ عنهم والاستفادة بعلومهم والانصات لهم والتتلمذ على ايديهم ٠ ويلقى الزهاد بالرغبة فى أن يكون زاهدا مثلهم مقتديا بهم ٠ ويلقى أهل المعرفة بالصمت أى لايتحدث فى حضرتهم بل يلتزم الصمت حتى يسمع منهم ويطلع على معارفهم تأدبا معهم ، واحتراما لمكانتهم ، وحبا فى مصاحبتهم والاستقاء من معارفهم الربانية وعلومهم الكشفية ويقول فى ذلك : " يامعشر المريدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل ، والزهاد بالرغبة ، وأهل العلم بالصمت (٢) ٠

ويُحكى عن ذى النون أنه رأى ببعض سواحل الشام أمرأة فقال لها : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ٠ فقال : وأين تذهبين ؟ قالت ؟ إلى رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ٠ فقال لها : صفيهم لى ٠ فأنشدت :

قوم همومهم بالله قد علقت ٠ ٠٠ فما لهم همم تسمو الى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ٠٠ ياحسن مطلبهم للواحد الصمد

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٦٣ ٠

(٢) السلمى - طبقات الصوفية ص ١٢ ٠

ما أن تنازعهم دنيا ولا شرف .. من المطامع واللذات والولد

ولا لبس لثياب فائق أنق .. ولا لروح سرور حل فى بلد

إلا مسارعة فى إثر منزلة .. قد قارب الخطو فيها باعد الأمد

منهم رهائن غدران وأودية .. وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد (١)

وكان البسطانى من صوفية عصره كما ذكرنا فيقول ذوالنون انه أرسل اليه رجلا وطلب منهم أن يقول له : إلى متى النوم والرحة ، وقد جازت القافلة ؟ فقال أبويزيد البسطانى : قل لأخى ذى النون : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة . فقال ذى النون: هذا كلام لاتبلغه أحوالنا (٢)

وهو هنا يتحدث إلى البسطانى بالفاظ غامضة رمزية اصطلح عليها الصوفية للتعبير عن أحوالهم ومقاماتهم ، وذلك سترا لحالهم وضنا بعلومهم على غير أهلها . وإن كان من الواضح أنه يعنى "بالنوم" الغفلة عن الله و " بالقافلة التى جازت " العمر الذى إنقضى أغلبه فى الحياة الدنيا . فهو يطلب من صاحبه ألا يغفل عن الله حتى لاينتهى العمر وهو فى غفلته . فيردعليه البسطانى بأن الرجل الحق من ينتبه من غفلته إذا غفل قبل رحيل القافلة .

وقد تناول ذو النون فى مذهبه الصوفى الحديث عن الرياضات العملية لمجاهدة النفس والتى يصطنعها الصوفية لتهذيب نفوسهم فحدثنا عن العزلة - والخلوة - والذكر . والسماع والصمت وله حديث تأول فيه رياضة الحج وسنتحدث عن كل منها كما تبنيناه عند شيخنا .

أولا : العزلة :

فى بداية الحديث عن العزلة والخلوة أود أن أوضح الفرق بينهما . فالعزلة يخالط

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٣٩ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

فيها المريد الناس فلا يعتزلهم ببدنه وإنما يكون معهم ببدنه ومع الله بقلبه وروحه فيجالسهم ويتحدث معهم ويؤدى ما يكلف به من أعمال غير أنه فى كل ذلك يكون انشغاله الأول بالله وليس بما حوله من الامور الأخرى . أما الخلوة فهو يختلى بعيدا عن الناس فى خلوة منفردا مينقطع فيها للتفكر فى الله والذكر المستمر وقراءة القرآن والعلوم الشرعية .

قال القشيرى : " الخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من إمارات الوصلة ، ولابد للمريد فى إبتداء أمره من العزله عن أبناء جنسه ثم فى نهايته فى الخلوة لتحققه بأنسه . ومن حق المتعبد إذا آثر العزلة ، أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شرهم " (١) وهذا إمعانا من المريد فى التواضع .

والمريد فى بداية الطريق يصطنع العزلة ويبقى مخالطا للناس غير أنه لاينشغل بما هم منشغلون به من الاهتمامات الدنيوية من أمور الحياة المختلفة ومشكلاتها . وإنما هو فى عزلته قد قصر إهتمامه فى التقرب الى الله وذكره والتفكر فيه فى سره . فهو وحده ما يرد على خاطره دون سواه . ثم ما يلبث المريد أن يجد نفسه فى حاجة إلى الإختلاء بعيدا عن الخلق . فيصطنع الخلوة وفيها يقضى مدة من الزمن قد تطول أو تقصر بحسب ما يرى هو بعيدا عن أبناء جنسه ، يتفرغ فيها للتعبد والذكر والتأمل وتحصيل العلوم الشرعية والتهجد بالليل دون أن يزعجه أحد حتى يشعر بأن الله وحده قد أصبح مهيمن على قلبه وصار موضع تفكيره وإنشغاله . وهو فى خلوته يتحقق بالانس به فى وحدته ويظل بها حتى شعر بصفاء قلبه ونقاء نفسه وشدة قربه من ربه وانه لو عاد إلى مخالطة الناس فإن ذلك لن يشغله عن الله فقد أخذ جرعة كافيه فى خلوته من كأس المحبة فذاق حلاوة القرب ولذة الأنس بالله وسعادة الاتصال مما يقوى به على ممارسة حياته العادية بين أقرانه متحليا بأخلاق وآداب الصوفية دون أن يخشى تحول قلبه عن الله والانشغال بما سواه من الأغيار أو الأمور الفانية .

---

(١) ابن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ٤٤

ويذهب شخنا المصرى إلى أن العزلة تكون صحيحه إذا قوى صاحبها على عزلة نفسه من الانشغال بما سوى الله • وهى أيضا عنده تعنى إعتزال الخصال المذمومة وأن يكون المريد خاليا عن جميع الأذكار إلى ذكر الله وأن يجلو سره لله فلا يتفكر إلا فيه ولا يأنس إلا به ولا يتقرب إلا له ويقول ذى النون :"متى تصح العزلة ؟ فقال : إذا قويت على عزل نفسك "(١)

ثانيا : الخلـــوة :

يرى ذو النون أن حب الخلوة عمود الاخلاص لله تعالى إذا تعلق به السالك صار من الواصلين إلى الحضرة الالهية • وصار من الصديقين • فعلى المريد بين الحين والآخر أن يختلى بنفسه بعيدا عن مشاكل الدنيا • وأن يكون محباً للوحدة فإذا خلص من التعلق بالأغيار ومن التعلق بالدنيا فعليه أن يخلص العباده لله وحده وأن يركز تفكيره فيه دائما وأن يكون رضاه والتقرب اليه أكبر همه ، وطاعته هى أمله الذى يسعى إلى تحقيقه • فإذا خلى بنفسه لايرى سوى الله ، وإذا لم ير سواه فلاينشغل إلا به ولا يحركه إلا حكمه وقال ذو النون فى ذلك : " لم أرى شيئا أبعث على طلب الإخلاص من الوحدة • لانه (أى المريد) إذا خلا لم يرى غير الله ، فإذا لم يرى غير الله ، لم يحركه إلى حكم الله • ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص واستمسك بركن كبير من أركان الصدق "(٢) •

وعلى من يصطنع العزلة والخلوة الا يعتقد فى نفسه أنه خير من الناس الذين اعتزلهم بل عليه أن يعتقد أن فى عزلته سلامة الناس من شره وقال ذو النون : " ليس من إحتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله "(٣) وهذا يعنى أن الخلوة ليست مطلوبة فى حد ذاتها وإنما هى وسيلة لتصفية القلب وذكر الله • وهذا يقودنا إلى الحديث عن رياضة عمليه أخرى لتهذيب الاخلاق وترقيق القلب وهى رياضة الذكر •

(١) الرسالة القشيرية ص ٥١ طبعة صبيح •
(٢) محيى الدين بن عربى : " الكوكب الدرى ل ٦١
(٣) البهر واردى - عوارف المعارف على هامش الاحياء للغزالى جـ ١ ص ٣٠٥ •

ثالثا : الذكـــر :

الذكر من الرياضات العملية التى حث الله سبحانه المؤمنين عليها فى مثل قولـــه تعالى : " يأيها الذين آمنو أذكرو الله ذكرا كثيرا " (س الإحزاب آية ٤١) .

ورياضة الذكر من أهم الرياضات التى يصطنعها الصافية للوصول الى الوجد والفنـــاء وقد يكون الذكر فى الجماعة وقد يكون منفردا .

وللذكر عبارات خاصه مثل " الله " أو لا إلاه إلا الله " أو سبحان الله " أو " هو الله" أو غيرها من عبارات الذكر وعلى الذاكر أن يكون متطهرا ويجلس مقتبلا القبلة . ويـــردد لفظا من الفاظ الذكر السابقة ويظل يذكر بلسانه ويحصر تفكيره فى الله ويطرد من خاطره كل ماسواه من الخواطر التى تشغله عن الذكر ثم مع استمرار الذكر يسكت اللسان ويبقى ذكـــر القلب . ولايزال الذاكر فى تذكره فى الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله . وفى تلك اللحظات يفيض الله على قلبه المعارف النورانية الوهبية .

يقول السهروردى البغدادى : " الذكر على أربعة أقسام : ذكر اللسان - وذكر القلب وذكر السر - وذكر الروح . فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكـــر . وكذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكـــر الهيبة . وإذا صح ذكر القلب ، فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الالاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر ، وذلك ذكر العادة " .(١)

وحقيقة الذكر عند شيخنا هى غيبة الذاكر عن الذكر . فأعلى درجات الذكر هـــى التى يفنى فيها الذاكر عن ذكره فيسكت اللسان ويبقى ذكر الروح ويفنى الذاكر عما حولـــه وعن نفسه ويبقى بالله .

(١) ابن عربى " الكوكب الدرى فى ماقب ذى النون المصرى ل ٤٦ .

ويقول ذو النون : " الذكر هو غيبة الذاكر عن الذكر " [1] فأفة الذكر أن يشعر الذاكر أنه يذكر . فمن ذكر الله ذكرا على الحقيقة نسى فى جانب ذكره كل شيء ولذا يقول السهروردى : " ولكل واحد من أنواع الأذكار عندهم (أى الصوفية) آفة . فأفة ذكر الروح اطلاع السر عليه وآفة ذكر السر اطلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه أو ظن أنه يصل شيء من المقامات . وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره . وسر هذا الاصل الذى بنوا عليه . أن ذكر الروح ، ذكر الذات . وذكر السر ، ذكر الصفات . وذكر القلب من آلاء والنعماء وذكر أثر الصفات . وذكر النفس متعرض للعلات . [1]

ولايعنى الذكر عند صوفينا أن الذاكر كان غافلا عن الله ثم تذكره . وإنما لسان الصوفى قد اعتاد على ذكر الله مع حضوره سبحانه وتعالى دائما فى قلبه وقد أنشد ذو النون :

لا لأنى أنساك أكثر ذكرا .. ولكن بذاك يجرى لسانى [2]

والذكر عند ذى النون هو سيف المريدين به يقاتلون أعدائهم ، وبه يدفعون الافات . وهو يفضى بالذاكرين الى الفناء والاتصال الروحى بالله سبحانه ويثمر المعرفة الذوقية .

والمريد الصادق عند شخينا إذا ذكر الله ذكرا كثيرا وصدق سعيه تجلى الله فى قلبه وحلى ذكره فى لسان الذاكرين وشغلهم به تعالى عن كل شيء وأحبوه أكثر من الاهل والمال ويقول ذو النون : " ان المريد اذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى فى صدره وحلى ذكره فى أفواه المريدين وشغلهم به شغل القلب على جميع الاشغال وحببهم له يحول بين الاهل والمال " [3]

رابعا : السماع :

السماع عند ذوى النون وغيره من الصوفية رياضة من الرياضات العملية التى ترقى

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) ابن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٠٩

(٣) المرجع السابق نفس اللوحة .

القلب وتبعث على الوجد وقد تؤدى بالسامع إلى الفناء . وهو يستند على أيه مثل قوله تعالى " فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " (س الزمر آية ١٨) .

وقد عرف ذو النون السماع بقوله : " السماع وارد حق يزعج القلب (أى يحركه) إلى الحق . فمن أصغى إليه بحث تحقق . ومن أصغى إليه بنفس تزندق " (١)

والسماع هو سماع القرآن الكريم وهو عنده وعند الصوفية جميعا أعلى أنواع السماع فهو كلام الله رب العالمين الذى لايدانيه كلام . وسماع الأشعار والإنشاد الدينى وغيره من الأقوال التى تحرك قلب السامع وتؤثر فيه فيسقط ما يسمعه من المعانى على ما فى نفسه فإن كان فى نفسه هوى وشهوة (دنياوية) آثارها السماع وإن كان قلبه عامرا بحب الله آثار السماع فيه هذا الحب . ولذا قال ذو النون : " السماع يزعج القلب وأن من أصغى اليه بحق تحقق وأن من أصغى اليه بحظوظ النفس وحب ما سوى الله تزندق " (٢)

وقد حكى أحد الصوفية المعاصرين لذى النون قال : " لما دخل ذو النون المصرى بغداد أجتمع عليه الصوفية ومعهم قوال . فاستاذنوه أن يقول بين يديه شيئا فاذن له . فانشد القوال :

صغير هواك عذبنى .. فكيف به اذا إحتنكا
وانت جمعت فى قلبى .. هوى كأنك تشكركا .

فتواجد ذو النون وسقط فانشج رأسه وقطر منه دم غير أنه لايسقط على الأرض . فقام شاب يتواجد فقال له ذو النون إتق الذى يراك حين تقوم . فقعد الشاب . وكان جلوسه لموضع علمه أنه غير كامل الحال ، غير صالح للقيام متواجدا . فلا يصح ان يقوم أحدهم من غير تدبر ولا علم فى قيامه . وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب ، ويستفزه النشاط المنبعث

(١) محيى الدين بن عربى ـ الكوكب الدرى ل ١٠٩
(٢) المرجع السابق نفس اللوحة .

من الطبع ، فيقوم يرقص موزونا ممزوجا بتصنع وهو محرم عند أهل الحق (١)

والصوفى الصادق عندما يسمع آيات الذكر الحكيم أو إنشاد القوالين فإنه لصدق مشاعره ورقة قلبه ونقاء سريرته ولشدة قربه من الله ينصت اليها فى تفكر وتدبر • فتثير فى قلبه مشاعر الحب والشوق الكامن لله فيستغرقه الوجد فيفنى عما حوله ويفنى عما يسمع ويبقى بالله فتحدث له حالة من الفناء والاتصال الروحى • وقد يأتى السامع لشدة انفعاله وقوة وجده بحركة أو يطلق صوتا • وإذا كان صادق الحال فإن كل ما يصدر عنه يكون دون تعمد منه ولا إراده • أما إذا كان مدعيا أو منافقا فإنه يتكلف الحركات •

وذكر الله بالقلب والتفكر فيه عند صوفينا هو مفتاح العبادة فإذا تأمل المؤمن فى بديع صنع الله وعظمة خلقه للكون وتنسيقه له وتفكر فى نعم الله على مخلوقاته • خر له ساجدا إجلالا وتكبيرا وتعظيما وشكرا • ويقول ذو النون : " مفتاح العبادة الفكرة " (٢) والسماع يبعث على التفكر فى الله • ويقول : " من يتبع الحق فى هذا السماع يحصل له الكشف على حين أن من يقع له الحجاب يعمد الى التأويل " (٣) •

خامسا : الصمت :

يعتبر ذو النون الصمت من الرياضات العملية التى يصطنعها سالك الطريق الصوفى لتهذيب نفسه ويعطيه فرصه كامله للتأمل والتفكر فى الله كما أنه يكف لسانه عما سوى الله ويقول ذو النون فى أهمية الصمت : " إذا سمعنا شابا يتكلم فى المجلس يأسنا من خبره " (٤)

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٠٩ •
(٢) المرجع السابق نفس اللوحة •
(٣) المرجع السابق نفس اللوحة •
(٤) المرجع السابق ١١٠ •

ويصف حال الصوفى الملتزم بالصمت بقوله : " إن لله عبادا .... تبلدوا من غير وعى ولا بكم وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله " . (١) فرياضة الصمت لاتقتصر على المريدين المبتدئين فقط بل يصطنعها الصوفيه العارفين الواصلين الى الحضرة الالهية ايضا فيصمتوا وهم البلغاء الفصحاء حتى يتلقوا عن الحق سبحانه . كما يشير ذو النون الى رياضات عملية أخرى كالسهر والصوم والجوع وغيرها من الرياضات التى يصطنعها الصوفية لتضعف بشريتهم وتقوى روحانيتهم ويكونوا اهلا للاتصال الروحى بالله .

سادسا : الحج :

تناول ذو النون رياضة الحج بالتحليل الطريق لمناسكه فكشف فيهكما يقول المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى عن معانى تلك الرياضة العملية وأولها تأويلا آبان عن آثارها الروحية فى حياة الذين يؤدون المناسك سواء فى علاقاتهم بربهم أو بأنفسهم أو بأشباههم (٢)

فقد أول ذو النون الوقوف بالجبل لا بالكعبة بان ذلك إنما كان لان الكعبة بيت الله والجبل باب الله . وان الله ليوقف القاصدين اليه والوافدين عليه بالباب يتضرعون . ويتأول ويعلل الوقوف بالمشعر الحرام . وكيف صار بالحرام . وذلك بأن الله لما أذن للوافدين عليه بالدخول اليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة . ولما طال تضرعهم آمرهم بتقديم قربانهم . وكان هذا القربان تطهيرا لهم من ذنوبهم التى كانت لهم حجابا من دون الله . وأذن الله لهم بالزيارة على طهاره . وأما أن الصوم مكروه أيام التشريق فذلك ما يأوله ذو النون ويعلله بأنه راجع الى أن القوم انما زاروا الله وانهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصوم عند من اضافه . ويعلل ذو النون التعلق باستار الكعبة فكيشف عن المعنى الذى ينطوى عليه هذا التعلق فيرى أن مثل الرجل وقد تعلق باستار الكعبه كمثل الرجل وقد كان

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١١٠ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية . تعليق على مادة ذى النون ج ٤ ص ٤٢٦ .

بينه وبين أخيه جناية فتعلق بثوبه واستجدى له وتضرع اليه ليهب له جرمه وجنايته (١)

المقامات والاحوال عند ذى النون المصرى :

اتضح لنا مما سبق ان الرياضات العملية تلعب دورا هاما فى اثارة الوجد وترقيق القلب وتصل بالسالكين طريق الصوفية الى حال الفناء كذلك إن الرياضات الروحية تعدل من سلوك المريد وتهذبه وتصل به الى اعلى مستويات الكمال الاخلاقى • وتصفى نفسه من الاخلاق الذميمه ، كالحقد ، والحسد ، والغيرة ، والكراهية ، والجشع • وعدم الرضا ، وقلة الحلم ، وإنكار نعم الله وغيرها من الصفات التى يجاهد المريد نفسه للتخلص منها والتحلى باضاضها • ولذا قيل : التصوف تخليه و تحليه • أى تخليه القلب والنفس من الاخلاق الذميمه وأدران الشهوة والهوى • وتحليته بحب الله والاخلاق الحميدة •

وقد كان لصوفينا المصرى الفضل فى وضع اسس التصوف النظرى وكان من اوائل الصوفية الذين تكلموا فى مصر فى ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية كما سبق أن اشرنا • وقبل التعرف على تصنيفه للمقامات يجدر بنا التفرقة بين المقام والحال كما جاء فى الرسالة القشيرية : فالمقام هو موضع إقامة السالك فهو يتصف به على الدوام ويصل اليه بالاجتهاد والارادة ومقاومة هوى النفس ومحاولته المستمرة للوصول بها الى درجة الكمال عن طريق الرياضات العملية كالصوم والذكر والصلاة والسماع والعزلة والخلوة والسهر والصمت وغيرهم وكلما تحقق السالك بأحد المقامات سعى الى التحقق بالمقام الذى يليه •ويختلف عدد المقامات وترتيبها من صوفى الى أخر ومن أمثلة المقامات • التوبة ، الصدق ، الرضا ، الذهد والمحاسبة وغيرها • أما الحال عند الصوفية فهو معنى يرد على قلب السالك من غير تعمد ولا إجتلاب ولا إكتساب من طرب أوحزن أو قبض أو بسط أو شوق أو هيبة أو فناء • فالاحوال مواهب والمقامات مكاسب وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله (٢)

(١) الرسالة القشيرية ص٣٢ طبعة صبيح
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

من ذلك يتضح أن الفرق بين الحال والمقام أن المقام يتحقق به السالك بكثرة تعبده وبإرادته أما الحال فهو موهبة من الله تلد على قلب السالم من غير التعمد منه ولا إجتهاد • كما أن المقامات دائمه بينما الاحوال زائلة •

وهناك نص لذى النون نستطيع أن نستشف منه ترتيب المقامات يقول فيه :" إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب بروامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا بغير جنون • وتبلدوا من غير وعى ولا بكم وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله • ثم شربوا بكأس الصفاء وورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت وأستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع • فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا وأستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاه وعروة السلامة وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بثناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا برياح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة • "(١)

ويمكن أن نتبين من هذا النص المقامات التالية :

مقام التوبة ـ مقام الصدق ـ مقام الاخلاص ـ مقام الصبر ـ مقام التفكر والتأمل ـ مقام اليقين ـ مقام الخوف الرجاء ـ مقام العبودية ـ مقام الحب والعشق ـ مقام الزهد ـ مقام التواضع ـ مقام الرضا ـ مقام التوكل ـ مقام المعرفة • ومن الاحوال • حال الانس ـ وحال الفناء والاتصال •

١ ـ مقام التوبة : ـ يعتبر صوفينا التوبة هى أول مقامات الطريق الصوفى ويحدثنا عن نوعين من التوبة :

(١) محى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون ل ١٠٠

- توبة العوام • وتكون من الذنوب والمعاصى وهى للمريد فى بداية الطريق •
- توبة الخواص وتكون من الغفلة عن الله والانشغال عنه بما سواه ويقول ذو النون : " توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة "(١)

والتوبة من الغفلة قد حث الله عليها فى مثل قوله تعالى : " واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربى رحيم ودود " (س التوبة أية ٩٠) والتوبة من الغفلة حث الله عليها عباده المخلصين فى مثل قوله تعالىّ :" وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" (س النور أية ٣١) وحتى تصح التوبة لابد لصاحبها من ثلاثة أشياء فيما يرى ذو النون : الندم على ماعمل ، ترك تلك المخالفات التى تغضب الله ، والعزم على ألا يعود على مثل ما أرتكب من المعاصى(٢) ويقول صوفينا فى ثمرة التوبة : (إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا ، نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندما وحزنا "(٣)

فالمريدون الذين وقفوا على خطاياهم وأنتبهوا الى ما عملوه من ذنوب وما كانوا فيه من غفلة عن الله فعزموا على التوبة الصادقة وترك كل ما يبعدهم عن الله وشعروا بالندم والحزن فإنهم يعزمون على ألا يعودوا مرة ثانية الى مخالفة الله أو الغفلة عنه • وهذا يشبه ماقاله الغزالى عن التوبة فى كتابه " احياء علوم الدين " حيث قال : " أعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، حال ، فعل • فالعلم الاول والحال الثانى والفعل الثالث ••••• أما العلم فهو معرفة عظم الذنوب وكونها حجبا بين العبد وربه فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب كلما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على

(١) محى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناطق ذى النون المصرى ل ١٠١
(٢) المرجع السابق نفس اللوحة
(٣) المرجع السابق ل ١٠٠ ظ

الفعل المفوت فيسمى ذلك ندما فإذا غلب هذا الالم على قلب واستولى إن إنبعث في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال ، وبالماضى ، والاستقبال ٠أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب التى كانت ملابسة ٠ وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوتة للمحبوب الى أخر العمر ٠ وأما بالماضى فبتلافى مافات بالجبر والقضاء ٠"(١)

وعلى السالك الذى تحقق بمقام التوبة أن يتحقق بعد ذلك بمقام الصدق

٢ـ مقام الصدق : ـ يعتبر الصدق هو ثانى المقامات التى يجب أن يتحقق بها المريد وهو يستند على مثل قوله تعالى : " يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (التوبة آية١١٩) وهو ضامن لصحة التوبة ٠ والصدق هو رأس مال المريد وفيه صلاح أمره ، وهو سلاح المؤمن الذى عليه أن يتسلح به حتى تكتب له النجاة دائما ، وهو سيف الله فى أرضه الذى يقطع بين الحق والباطل والشك واليقين ٠ ويقول ذون النون فى الصدق : " الصدق سيف الله فى أرضه ما وضع على شئ الا قطعه "(٢)

والمريد الصادق عند شيخنا هو من يكون صادقا مع ربه فلا يدع من المقامات والاحوال ماليس له ولا يقول بلسانه ما ليس بقلبه أو يدعى المعرفه بالله أو الزهد ٠ ويكون صادقا مع نفسه ٠ وصادقا مع غيره ٠ ويقول ذو النون : " وإياك أن تكون بالمعرفة مدعيا أو تكون بالزهد محترفا ٠ أو تكون بالعبارة متعلقا "٠(٣)

والصدق عند ذى النون هو الحقيقة الموصلة للحق فالله هو الحق وقوله الحق ولايتيسر للسالك الوصول اليه إلا بالحق والصدق وإلا فهو محجوب عن مشاهدته ٠ ولايجوز

---

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ج ٤ ص ٣ ٠

(٢) السلمى ـ الطبقات ص ١٠ ـ وأنظر أيضا : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٥٢ ٠

(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ٠ ل ١١١ ـ

للمدعين الكذب على الله لأنه سبحانه شاهدا عليهم ، وأعلم بحالهم • وكاشفا أسرارهم ويقول شيخنا : " كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق لأن الحق شاهدا لأهل الحق ••••• لأن الحق هو الحق • وقوله الحق ولايحتاج أن يدعى إذا كان الحق شاهدا له ••• وأما إذا كان غائبا فحينئذ يدعى ، وإنما تقع الدعوى للمحجوبين "(١) •

وإذا تحقق المريد بمقام الصدق عليه أن يكون مخلصا فى علاقته بالله ويخلص فى صدقه فيعمل على التحقق بمقام الاخلاص •

٣ ـ مقام الإخلاص يربط شيخنا بين مقام الصدق ومقام الاخلاص فيذهب إلى أن الصدق لايتم إلا بالإخلاص وأن الاخلاص لا يتم الا بالصدق فعلى المزيد الصادق فى توبته أن يكون مخلصا لله ويصبر على اخلاصة ويداوم على التحقق بالصدق • ويقول ذو النون فى ذلك : " الاخلاص لايتم الا بالصدق فيه ، والصبر عليه ، والصدق لايتم الا بالاخلاص فيه والمداومة عليه "(٢)

ومقام الاخلاص يقوم على أية مثل قوله تعالى : " ألا لله الدين الخالص " (س الزمر آية ٣) وقوله تعالى : " وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " (س البينة آية ٥)

وعلامة تحقق المريد بمقام الاخلاص عند شيخنا ثلاثة هى : استواء المدح والذم من العامة ـ نسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة •

فالمريد الذى تحقق بمقام الاخلاص لايغضبه ذم الناس له ولايفرحه مدحهم فالناس لايحكمون الا بالظاهر بينما الحق سبحانه يحكم بما فى الباطن • وهو وحده المطلع على مافى قلبه وسريرته طالما تحقق بالاخلاص وصدق فى اخلاصه لله • كما أن المتحقق بمقام الاخلاص اذا فعل خيرا او سلك سلوكا نبيلا فانه لاينظر الى فعله على أنه عمل عظيم وانما هو يعمل

(١) ـ الرسالة القشيرية ـ تحقيق د • عبد الحليم محمود ، ومحمود الشريف ج ٢ ص ٤٥٢

(٢) محيى الدين بن عربى ـ الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١١

الخير ولايرى ذلك فى أعماله حتى لايدخله العجب بنفسه وكذلك فان المتحقق بمقام الاخلاص لايعمل العبادات ابتغاء الاجر والثواب فيكون كما قالت رابعة العدوية : "كالاجير السوء" وانما هو ينسى اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة فيعمل الخير لذاته ٠ ٠ ٠

ولاريب أن من آراد أن يتقرب الى الله ويحظى برضاه وحبه يجب ان يتحلى بالصدق والاخلاص والا فهو مدع ومنافق لاتصح توبته وهو بذلك يكون محجوب عن الله ٠ ويتفق قول ذى النون مع الغزالى فى أن الاخلاص الصادق هو عدم رؤية المريد للاخلاص فانه اذا شاهد إخلاصه فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وأن السالك يجب ألا يرى فعله أو يلتفت اليه ينفق ايضا مع ما ذهب اليه الغزالى من ان الاخلاص هو تجريد قصد التقرب الى الله تعالى من الشوائب (١) وعلى السالك بعد ذلك أن يتحقق بمقام الصبر ٠

٤ - مقام الصبر : يعتبر صوفينا مقام الصبر من المقامات التى يجب أن يتحقق بها السالك للطريق الصوفى منذ البداية وهو قائم على مثل قوله تعالى : " واصبر وما صبرك الا بالله " (س النحل ايه ١٢٧) ٠ وحقيقة الصبر عند ذى النون فى قدرة السالك على البعد عن المخالفات فالمريد الذى يجاهد نفسه ليزكى الخير فيها ويورثها جميل الصفات عليه بالبعد عن المعاصى والمخالفات ويصبر على ذلك ٠ كما أن للصبر عنده معنى آخر وهو السكون عندما تحل بالسالك البليه أو مكروه ٠ كما ان الصبر يظهر فى التحلى بمظهر المتنعم بنعيم الله الميسور الحال فى وقت عوزه وشده فقره ٠ فالسالك المتحقق بمقام الصبر يبدو على مظهره الرضا والسعادة والغنى مع قلة موارده وضيق رزقه ويقول ذو النون : " الصبر هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجريح البليه ، واظهار الغنى مع خلول الفقر بساحات المعيشة " (٢) ومن أعلام الحلم عند شيخنا ثلاثة : قلة الغضب عند مخالفة

(١) - محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٢ ٠
(٢) الطوسى : اللمع ص ٧٥ ٠

الرأى ، والاحتمال عند الورى إخباتا للرب ونسيان اساءة المسيء عفوا عنه واتساعا عليه "[1]

ثم على السالك بعد ذلك ان يديم التفكر فى الله

٥ - مقام التفكر والتأمل : يرى ذو النون ان التفكر فى الله والتأمل فى ملكوته وعظيم قدرته فى خلق السماوات والارض هو مفتاح العبادة كما أن السالك اذا تفكر فى نعم الله خر منحنيا له اجلالا واكبارا ويقول ذو النون :" مفتاح العبادة الفكرة "[2] . ولاشك أن المتفكر فى الله الذى لايشغل فكره بسواه ولايرجو الا رضاه كلما زاد تفكره كلما شعر بنقصه امام كمال الله وبضعفه امام قوته ، وبجهله امام علمه . وبخسته امام عظمته سبحانه فيخشى جبروته .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى مثل قوله تعالى : " الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " (س آل عمران آيه ١٩١) واذا تعمق السالك فى التفكر فى الله تحقق بحال اليقين .

٦ - مقام اليقين : يتحقق السالك بمقام اليقين عملا بقوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " (س الواقعة آية ٩٥) . واليقين هو العلم الذى لايداخله صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه لعدم التوقف . وعلم اليقين على موجب اصطلاح الصوفيه ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان . فعلم اليقين لارباب القلوب وعين اليقين لاصحاب العلوم ، وحق اليقين لاصحاب المعارف[3] .

واليقين عند صوفينا يكون نتجية التفكر والتأمل فى الله وهو نور اذا وصل الى القلب ازال عنه كل ريب ويمتلىء القلب به شكرا لله وخوفا من عباده ورجاء فى ثوابه وهو عند صوفينا باعث على الزهد فى الدنيا والبعد عما سوى الله . والزهد بدوره يؤدى الى

(١) ابو نعيم الاصفهانى حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٨٢ .

(٢) السلمى - طبقات الصوفية ص ١١ وانظر الطوسى اللمع ص ٧٦.

(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٢

الحكمة فى القول والفعل والحكمة تورث النظر فى عواقب الامور • وتؤدى الى بعد النظر • ويقول فى ذلك :" اليقين داع الى قصر الامل ، وقصر الامل يدعو الى الزهد ، والزهد يورث الحكمة والحكمة تورث بعد النظر فى العواقب • (١) وفى رأى شيخنا ان اليقين اذا صح فى القلب ، صح فى القلب الخوف من الله • فمن لا يقين عنده لاخوف عنده • ويقول : " إذا صح اليقين فى القلب صح الخوف فيه " (٢) اى إذا لم يكن الانسان مؤمنا ومتيقنا من وجود الله تعالى فلن يخشاه أو يخافه •

وما قاله ذو النون يشبه ماقاله الغزالى من :" أن الخوف ثمرة العلم اليقين بالله تعالى " (٣) ويذهب ذو النون إلى أن من علامات اليقين ثلاثة : قلة مخالطته (أى المريد) لنناس فى العشرة • وترك المدح لهم فى العطيه والتنزه عن ذمهم عند المدح • (٤)

وعنده ايضا أن اعلام يقين اليقين ثلاثة : النظر الى الله تعالى فى كل شئ والرجوع اليه فى كل أمر • والاستعانه به فى كل حال • (٥) واذا ايقن السالك من وجود الله فانه يخشاه ويرجو عفوه • فعليه بعد ذلك أن يتحقق بمقام الخوف والرجاء •

٧ - مقام الخوف والرجاء : ومقام الخوف يقوم على مثل قوله تعالى : " ويحذركم الله نفسه " (س آل عمران اية ٢٨) ويذهب ذو النون الى ان الخوف رقيب العمل ومن خشى ربه راقبه فى كل اعماله واقواله مخافة أن يقع فى معصية تغضب ربه • ولذلك فمن يتحقق بمقام الخوف من الله يكون حريصا كل الحرص على مرضاة الله فى جميع ما يصدر عنه • رجاء رحمة فى المحن وغفرانه للذنوب والامل فى عفوه ورضاه ويقول شيخنا : " الخوف رقيب العمل

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٤٤ طبعة صبيح •
(٢) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٣
(٣) الغزالى الملهيا علوم الدين جـ ٢ ص ١٥٧ •
(٤) محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٣ •
(٥) المرجع السابق نفس اللوحة •

والرجاء شفيع المحن " [1] فالرجاء "هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده" كما يقول الغزالى الذى يرى ان العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف لأن اقرب العباد الى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب الرجاء " [2]

والى مثل هذا ذهب صوفينا من قبل حينما قال : " لو أن ذرة من الاشتياق . أثقل على الجوارح من قنطار من الخوف . لأن الشوق يخرج من الابدان خفى الطاعات " [3] فصوفينا يرى أن ذرة من حب الله والشوق اليه تعمل عملها فى جوارح المحب المشتاق فيراقب الله فى كل حال لأن الشوق يخرج من الابدان ما خفى من الطاعات مما لايقدر الخوف على إخراجه .

ويذهب شيخنا الى أن العابدين الخائفين يدركون حق الادراك أن لله حقوق أثقل من أن يقوم بها العبد . وله سبحانه نعم لاتحصى ولا تعد وان عليهم ان يتوبوا الى الله بكرة واصيلا ويقول ذو النون : " لله عبادا قطعهم الخوف أن يعرفوا أن حقوق الله أثقل من أن يقوم بها العابد . وأن نعم الله أكثر من ان يحصيها العابد ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين" [4]

وقد سئل صوفينا . متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ فقال : اذا انزل نفسه منزله السقيم يحتمى من كل شئ مخافة السقم [5] وهذا يعنى أن العبد يتحقق بالخوف اذا ايقن ان مكروها ينتظره أو خشى نفسه ان يكون دوما فى منزلة السقيم فيحتمى من غضب الله فى تجنب المعاصى مخافة طول السقم . وهذا يشبه ماقاله الغزالى من أن الخوف لايتحقق الا بانتظار مكروه اما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار ، واما أن يكون لانه يفضى الى مكروه كما تكره المعاصى لأدائها الى مكروه فى الاخرة [6]

---

(١) طبقات السلمى ص ١١

(٢) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٤١ .

(٣) محيى الدين ابن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٤ .

(٤) المرجع السابق نفس اللوحة .

(٥) المرجع السابق نفس اللوحة .

(٦) احياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٥٥ .

وللخوف عند شخنا علامات ثلاثة هى كما يقول : " الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم ودواء الكمد اشفاقا من غضب الحليم "(١)

وكان الحسن البصرى (٢١ هـ ـ ١١٠ هـ) اكثر الزهاد تحققا بمقام الخوف • وكان دائما يقول : " من خوفك حتى تلقى الامن خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف "(٢)

وقال ذو النون فى الرجاء : " لئن مددت يدى اليك داعيا لطالما كفيتنى ساهيا اقطع منك رجائى بما عملت يداى ؟ حسبى من سؤالى علمك بحالى • "(٣) وهنا يناجى ذو النون ربه بأنه يطمع فى كرمه ويرجو عفوه ومغفرته فإذا مد اليه يده داعيا راجيا وهو سبحانه الكريم الذى طالما تكرم عليه بنعمه وهو غافل عنه فهو لايقطع الرجاء من الله بما عمل من ذنوب لانه أعلم بحاله • واذا تحقق العبد بالخوف من الله فعليه ان يصحح عبوديته لله ويلتزم بمقام العبودية الحقه •

٨ ـ مقام العبودية : يقوم مقام العبودية على آية مثل قوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " (س الحجر آية ٩٩) والعبودية هى جوهر الدين وهى دستور العلاقة بين العبد وربه وهى فى رأى الصوفية أتم من العبادة • فأولا عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة • فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص • والعباده لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين ، والعبوده لمن له حق اليقين • والعبادة لاصحاب المجاهدات والعبودية لأرباب المكابدات • والعبودة صفة أهل المشاهدات ؟ فمن يدخر عنه تعالى نفسه فهو صاحب عباده ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبوديه • ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبوده(٤)

---

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٤ ،
(٢) الصهروردى ـ عوارف المعارف ص ٩٨ •
(٣) محيى الدين بن عربى ـ الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٥
(٤) ابونعيم الاصبهانى ـ حليةالاولياء جـ ٢ ص ١٢١ •

ولا ريب أن فى عبودية الله منتهى العزة والكرامة ومنتهى الحرية ولذلك قال الامام القشيرى " الحرية الا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولايجرى عليه سلطان المكونات ." (١)

كما أن ذروة الحرية الا يخضع الانسان لشهوات نفسه ويسير عبدا لها ، ولذلك قال ابو على الدقاق " من دخل الدنيا وهو عنها حر ، يرتحل الى الاخرة وهو عنها حر " (٢)

فحقيقة الحرية فى كمال العبودية فإن كان العبد صادقا فى عبوديته لله خلص من رق الاغيار وصار من الاحرار ولذلك قال الحسن بن منصور الصوفى :" من أراد الحرية فليصل العبودية " (٣) .

وحقيقة العبودية عند ذى النون أن يشعر السالك بأنه عبدا لله سيده ومولاه فى كل حال وآن فيعرف أنه تعالى رب نعمته ويقول : " العبودية أن تكون أنت عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال . " (٤) . والسالك المتحقق بالعبودية يستحى من الله ولذلك فيجب عليه التحقق بمقام الحياء .

٩ - مقام الحياء : يذهب ذو النون الى أن العبد الذى يخشى ربه لابد ان يستحى منه قال تعالى : " الم يعلم بأن الله يرى " (س العلق اية ١٤) وهو يربط بين مقام الخوف من الله ومقام الحياء منه تعالى . فيجعل الخوف فى منزلة أقل من منزلة الحياء . فالمريد الذى يترك المعاصى ويتقرب الى الله بالطاعات والعبادات لتحققه بمقام لخوف . ما يلبث أن يترك ذنوبه حياء من كرم الله . بعد أن تركها خوفا من عقوبته . ويقول فى ذلك : " لله عباداً تركوا الذنوب استحياء من كرمه . بعد ان تركوها خوفا من عقوبته . ولو قال تعالى : اعمل ما شئت فلست اخذك بذنب . كان ينبغى أن يزيدك استحياء منه ، وتركا لمعصيته ،

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٠ .

(٣) المرجع السابق ٤٦٢ .

(٤) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١١٥

ان كنت حرا كريما عبدا شكورا ٠ فكيف وقد حذرك !! " [١]

وحقيقة الحياء عند ذى النون شعور قلب السالك بهيبة الله عز وجل مما إقترفه من معاصى سابقة ويقول : " الحياء وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك الى ربك " [٢] وقال أيضا : " الحب يُنطق والحياء يُسكت ، والخوف يُقلق " [٣] ٠

وذو النون يفرق بين الاستجابات الانفعالية لكل من الحب والحياء والخوف من الله فيرى أن الحب لله الذى تمكن من قلب صاحبه لابد أن ينطق تعبيرا عن هذا الحب العظيم ٠ أما الذى يسيطر عليه الحياء من الله ، فإن الحياء يسكته ويجعله غير قادر على النطق ، أما الذى تملك قلبه الخوف من الله فإن القلق يسيطر عليه ٠ وعند شيخنا اعلام الحياء ثلاثة هى : " وجدان الانس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكر ، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة " [٤] والسالك الذى صحح عبوديته وصار يستحى من ربه عليه ان يزهد فى الدنيا ويقبل على الآخرة ٠

١٠ ـ مقام الزهد : يعتبر صوفينا ان الزهد فى الدنيا من اهم الصفات التى يجب ان يتحقق بها السالك للطريق الصوفى ففى رأيه أن الانسان الذى يتجه بكليته الى الله متقربا اليه بالعبادات والطاعات ، لا يتعلق قلبه بزينة الحياة الدنيا وما بها من اغراءات وملذات شاته ، اذا قضى الانسان عمره فى تحصيلها فانه يشقى بها ويسلمه ذلك الى الانغماس فيها فيصير اسيرا لها وتصرفه عن التفكر فى الله والتقرب اليه ٠ وتصبح الدنيا هى جنته بما فيها من النعيم والمتع الزائفة الزائلة ٠ ويرى فى التمتع بها لذته الحقيقية وسعادته الكاملة فيسرف فى الاقبال عليها ٠

(١) السلمى ـ الطبقات ص ١١ وانظر ايضا محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١١٦
(٢) المرجع السابق نفس اللوحة والرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤٥٥ ٠
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة ٠
(٤) الاصبهانى ـ حلية الاولياء جـ ٩ ص ٣٨٢ ٠

أما المؤمن فإنه يعتبر الدنيا سجن كبير وهى فرصة يتزود فيها بالاعمال الصالحة والطاعات والعبادات حتى يعد نفسه للنعيم المقيم فى الجنة الحقيقية . ويقول ذو النون : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " (١) ويقول من أعلام الزهد ثلاثة " قصر الأمل - وحب الفقر، والاستغناء مع الصبر " (٢)

ويذهب شيخنا الى أن الزهد فى الدنيا يورث الحكمة والنظر فى عواقب الامور فهو يقول : " الزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر فى عواقب الأمور " (٣) .

وحقيقة الزهد عند ذى النون ان يزهد السالك فى نفسه اولا فانه اذا احب نفسه ادى به ذلك الى الانغماس فى اشباع اهوائها ولذاتها . اما اذا زهد فيها أوصله ذلك الى الزهد فى الدنيا . وقد قال رجل لذى النون : " متى أزهد فى الدنيا : "قال إذا زهدت نفسك " (٤)

وكان صوفينا يرى ان الزهد فى زمانه اصبح امرا نادرا ويقول فى ذلك : " أدركنا ناس الواحد منهم كلما ازداد علما ازداد فى الدنيا زهدا وتركا لها . واليوم يزداد الرجل بعمله حبا للدنيا وطلبا لها وكان الرجل ينفق ماله على علمه . واليوم يكسب الرجل بعمله مالا . وكان يُرى على صاحب العلم زيادة فى باطنه وظاهره . واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر " (٥) وعلى السالك الذى زهد فى الدنيا واتجه الى الله ان يتحقق بمحبته .

١١ - مقام المحبة والعشق : كان لذى النون نظرية فى المحبة فهو يرى أن حبا عظيما متبادلا بين العبد وربه . وقد تحدث ذو النون عن المحبة وكانت رابعة العدوية قد سبقته الى ذلك . فالمحب الصادق هو من أحب كل شىء يحبه الله ، وابغض كل شىء يبغضه الله .

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٠
(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٣ طبعة صبيح . الاصبهانى حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٨٢
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٤) السلمى - الطبقات ص ١٠ .
(٥) الرسالة القشيرية ص ٥٧ وطبقات السلمى ص ١١ .

والمحبه هى ايضا فعل الخير بجميع صوره فى كل وقت وفى كل مكان ، وهى أيضا فى البعد عن كل مايشغل السالك عن ربه • ويبعده عن التقرب اليه ، والمحبه هى كذلك الا يخشى السالك إلا الله ولا يخاف فى الله لومة لائم ، وان يكون رقيق القلب عطوف على اخوته من المسلمين ولا يتساهل مع الكافرين وان يقتدى بالرسول الكريم فى قوله وفعله ودينه • وقال شيخنا عندما سئل عن المحبة : " ان تحب ما احب الله ، وان تبغض ما ابغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ولاتخلف فى الله لومه لائم • مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله (ص) فى الدين " (١) •وقد أنشد ذو النون فى الحب مناجيا ربه :

أموت وما متت اليك صبابتى •• ولا قضيت من صدق حبك اوطارى •
منای كل المنى انت لى منى •• وأنت الغنى وكل الغنى عن أقتارى
وأنت مدى سؤالى وغاية رغبتى •• وموضع أمالى ومكنون اضمارى •
تحمل قلبى فيك مالا أبثه •• وان طال سقمى فيك أوطال إضرارى •
وبين ضلوعى منك مالك قد بدا •• ولم يبد باديه لأهلى وجارى •
وبى منك فى الاحشاء داء مخامر •• ومنقذ من أشفى على جُرُف هارى •
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن •• من النور فى ايديهم عشر معشار (٢)
فثلثنى بعفو منك احيا بقربه •• أغثنى بيسر منك يطرد أعمارى •

وفى هذه الأبيات يعبر ذو النون عن مدى حبه لله تعالى فهو يرى أن حب الله باقيا فى قلبه طوال عمره وحتى بعد مماته فان هذا الحب الكبير لايموت ولا ينتهى • وان الله تعالى هو كل مناه فهو يحبه لذاته • وهو سبحانه الغنى كل الغنى عن أعماله وتعبده ، وهو سبحانه كل مطلبه وموضع اماله ، وهو الذى يملك عليه سره • وقد خمل فى قلبه حبا يعجز عن بثه أو التعبير عنه مهما طالت لوعته وسقمه • وبين جنباته حبا لايخفى على الله وان كان يخفى على الاهل والجار ، وحبه تعالى قد استقر فى دمه

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٠ •
(٢) المرجع السابق نفس اللوحة و السلمى - طبقات الصوفية ص ١٠ •

والله ربه دليل لكل محتار ومنقذ كل من ضل عن الطريق واشرف على الهاوية وقد انار طريق الهداية للمهتدين الذين لم يكن لديهم من الهدى عشر معشار ما كان عنده ويقول : فنلنى بعفوك يا إلهى وإغثنى بيسر منك ويسر لى أمرى .

وللحب عند ذو النون علامات أهمها أن يكون المتحقق بمقام الحب متابعا للرسول (ص) ومقتديا به ويقول : " من علامات المحب لله ، متابعه حبيب الله (ص) فى أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته " (١)

وحقيقة المحبة عند ذى النون أن تحب من يحبه الله وتبغض من أبغضه الله وتطلب رضاه وترفض جميع ما يشغلك عنه والتخف فى إلله لومة لائم وإن تعزل نفسك عن رؤيتها وتدبيرها فإن اشد الحجب رؤية النفس " (٢) . فعلى سالك طريق الصوفية ان يحب فى الله ويبغض فى الله ويرفض كل ما يشغله عن الله ولا يخشى فى الله لوم وأن يسقط تدبير نفسه لأن رؤية تدبير النفس هو أشد الحجب التى تحجب السالك عن حبيبه . وهو فى قوله هذا يتفق مع ما نجده عند ابو الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) حيث قال : " ولم يصل الولى الى الله ومعه تدبير من تدبيراته او اختيار من اختياراته " (٣) وهو أيضا يشبه ما نجده عند ابن عطاء الله السكندرى (المتوفى سنة ٧٠٩ هـ) والذى قال : " أهل الغفلة والاساءة قد اجابوا الشيطان فى الكبائر والمخالفات واتباع الشهوات فليس للشيطان حاجة ان يدعوهم الى التدبير ولو دعاهم اليه لاستجابوا بسرعة ... فليس هو أقوى اسبابه فيهم إنما يدخل الشيطان بذلك على أهل الطاعه والمتوجهين لعجزه عن أن يدخل من غير ذلك عليهم، فرب صاحب ورد عطله عن ورده، أو عن الحضور مع الله تعالى فيه هم التدبير والفكره فى مصالح نفسه ، ورب ذى ورد استضعفه الشيطان فالقى اليه دسائس التدبير ليعكر عليه صفاء وقته " (٤)

(١) السلمى - طبقات الصوفية ص ١١ - محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢١

(٢) المرجع السباق نفس اللوحة

(٣) د . ابو الوفا الغنيمى التفتازانى - ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ط ٢ ص ١٣١ .

(٤) المرجع السابق ط ٢ ص ١٣٠ .

وعند شخنا أن المحب لله يستقل كل ما يقوم به من طاعات وعبادات ويقول : " من أحب الله استقل كل عمل يعمله " (١) ويقول أيضا : " لو لزمنا الحياء من الله مما ذكرنا المحبة . وقد شربنا من كأس الدنيا " (٢) فهو على شدة زهده يرى أنه يستحى من الله عند ذكر المحبة مع ما شربه من كأس الدنيا . وهذا لكثرة تواضعه وحيائه من الله .

والمتحققون بمقام المحبه عند شيخنا ليسوا جميعا على درجة واحدة وانما هو كما يقول على أربع طبقات ويقول فى ذلك : " المحبون فى الدنيا على أربع طبقات . منهم اذا ذكر حبيبهم أنّ أى يُسمع منه أنين الشوق " ومنهم اذا ذكر حبيبه حَن (أى شعر بالحنين اليه) ومنهم إذا ذُكر حبيبه رن (أى نظر اليه بقلبه وتوجه اليه بسره) ومنهم من ذكر حبيبه جُن (٣) وهذا أعلى درجات المحبة وهو يعنى هنا بالجنان الوله والشوق البالغ الى الله وعشقه .

وقد حذر ذو النون من ادعاء حب الله لأن المحبه مقام شريف طالما ادعاه الخلق مع ارتكابهم للمخالفات والمعاصى ، وأولى بهؤلاء المدعين أن يخشوا الله ويطيعوه وأن يحزنوا على حالهم لأن الحب يجعل قلب صاحبه يفيض تقوى لله ويطبع نفسه على النقاء والصفاء وهذا يتضح مما روى عن ذو النون فى مجلسه بين أصحابه يتذكرون فى المحبه فقال ذو النون " كفوا عن هذه المسأله لاتسمعها النفوس ، وتدعيها ثم أنشد :

الخوف أولى بالمسىء .. إذا تأله والحزن . (٤)
والحب يجمل بالتقى .. وبالتقى من الدرن

ويتفق ذو النون مع الغزالى فى اعتبار المحبة الغاية القصوى من المقامات وانها اكملها وأعلاها يقول الغزالى : " المحبه لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب دو النون المصرى ل ١٢٢
(٢) عبدالرحمن السلمى - الطبقات الصوفية ص ١٠
(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٢
(٤) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٢٢ .

العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبه مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعهـا كالشوق والانس والرضا واخوانها ، ولا قبل المحبة مقام الا هو مقدمة من مقدماتها كالتوبـة والصبر والزهد وغيرها " .(١)

واذا تحقق السالك بمقام المحبة تواضع لله فعليه أن يتحقق بمقام التواضع .

١٢ - مقام التواضع : يذهب ذو النون الى أن المريد الصادق لابد أن يتحقق بالتواضع فمن تواضع لله رفعه الى أعلى الدرجات وعليه بترك الغرور وأن لايرى فى تعبده وزهده وتقربـه الى الله شيئا يميزه على غيره من الناس ، فلا يعجب بأعماله ولا يتباهى بها حتى لا تكـون حسناته سيئات ويقول : " من تزين بعمله كانت حسناته سيئات "(٢) ويقول أيضا : " دوام الفقر الى الله مع التخليط . أحب إلىّ من دوام الصفاء مع العجب .(٣)

وحقيقة التواضع عند شيخنا أن يطلب المريد من ربه الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم فإذا كان له عند الله حاجة فيرجوه تعالى فى تواضع ان يقضيها له ويقول : " اطلـب الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم "(٤) وعنده أن من الاسباب الداعيه للتواضع ان ينظـر الانسان الى عظمة ربه فتصفو نفسه وتتواضع الى جانب سلطان الله وهيبته . فمن نظر الى الله على إنه خالق نظر الى نفسه على انه مخلوق ومن نظر الى الله على أنه قادر نظر الى نفسـه على أنه عاجز ومن نظر الى الله على انه عالم نظر الى نفسه على انه جاهل فلذا دخل السالك العجب بنفسه وجب عليه أن يتذكر عظمة الله فيشعره ذلك بضعفه وقلة حيلته ويقول شيخنا : " من آراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطـان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته ."(٥)

(١) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٥٢ .
(٢) السلمى - الطبقات ص ١١ . بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢٣ و
(٤) المرجع السابق نفس اللوحة . وانظر السلمى - الطبقات الصوفية ص ١٠
(٥) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ١٢٣

وقال تعالى يحث عباده على التواضع : " سأصرف عن آياتى الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق " (س الاعراف آية ١٤٦) .

ويذهب ذو النون الى أن من علامات الغرور الاعتماد على رحمة الله مع قلة العمل ويقول : " من علامة المغترين إعتمادهم على رحمة الله ومغفرته " (١) ثم على السالك أن يتحقق بمقام التوكل .

١٣ ـ مقام التوكل : يعنى التوكل عند شيخنا اسقاط التدبير . بمعنى أن الذى تحقق بالعبودية وصدق ما عاهد الله عليه من التزام طريق الصوفية وتحقق بالتوحيد واليقين . فإنه يترك تدبير نفسه ويتوكل على الله ويفوض إليه أمره ويقول ذو النون فى حقيقة التوكل: " التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع عن الحول والقوة " (٢)

وقد حث الله عباده المؤمنين على التوكل عليه فى قوله تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " (س الطلاق آية ٣) وقوله تعالى : " وعلى الله فليتوكل المؤمنون " (س آل عمران آية ١٦٠) والتوكل يستند أساسا كما هوا واضح من الآيه على الايمان اليقينى بالله الواحد الأحد . فإن لم يكن السالك على يقين تام لا يصح توكله . فالانسان لايوكل امره الالمن وثق فيه واعتقد اعتقادا تاما فى قدرته . ولذا سئل حمدون القصاص الصوفى عن التوكل فقال : " تلك درجة لم أبلغها بعد وكيف يتكلم فى التوكل من لم يصح له حال الايمان " (٣) . ويربط ذو النون بين التوكل والتوحيد فيقول : " التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج . وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه وليس فى السماوات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غيره " (٤)

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٥
(٢) السلمى ـ طبقات الصوفية ص .. .
(٣) الغزالى ـ أحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٥٥ .
(٤) الرسالة القشيرية ص ٨٧ طبعة صبيح .

فإذا تحقق السلك بالايمان اليقيني والتوحيد الحق وعلم أن قدرة الله في الأشياء هي قدرة خالصه لايشاركه فيها سواه وانه سبحانه عله كل شيء وأنه المدبر الوحيد لأمور السماوات والأرض فانه يسقط تدبيره ويسلم أمره الى الله ويتوكل عليه ٠وعليه بعد ذلك أن يحاسب نفسه ويراقب ربه ٠

١٤ - مقام المحاسبة والمراقبة : يستند مقام المحاسبة على آية مثل قوله تعالى : " وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " (س البقرة آية ٢٨٤) ٠ ويستند مقام المراقبة على قوله تعالى : "وارتقبوا اني معكم رقيب " (س المائدة آية ١١٧) ٠ فالسالك طريق الصوفية عليه بمحاسبة نفسه على كل ما يقوم به من اعمال واقول وطاعات ٠ ويراقب نفسه مراقبة شديدة ويعلم أن الله يراقبه في كل حركاته وسكناته وأنه يعلم ما خفي في سره وما ظهر في علنه ٠ فالمراقبة كما يقول الامام القشيري : " هي علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم ومراقبته لربه ٠ وهذا اصل كل خير ، ولايكاد يصل الى هذه المرتبه الا بعد فراغه من المحاسبه فإذا حاسب نفسه على ما سلك ، وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق أحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب وراقب الله تعالى في عموم احواله " (١)

ويقول ذو النون يا أخي وصيتك بتقوى الله العظيم والمراقبة له حيث لايراك أحد الا الله والاستعداد لما ليس لأخيك فيه خجله فاجتهد الى خلع قناع الغافلين " (٢)

وحقيقة المراقبة عند صوفينا أنها نور ينير سبيل السالك في طريقه الى الله ، ويقول في ذلك : " لايجد السبيل الى الله من لم يتأدب بنور المراقبة ٠ ولم يستحق الولاية من لم تكتنفه الكفاية ٠ ولم يرتع في رياض انته من لم يعبر بحار عظمته ، ولم يلج بباب

(١) الرسالة القشيرية ص ٧٨ ٠

(٢) محيي الدين بن عربي الكوكب الدري ل ١٢٦

الوصول من لم يسير اليه على أقدام الهيبه " .[1]

وعلامة المراقبة عند ذى النون حب وتفضيل ما أحبه الله وفضله ، وتعظيم ما عظمه ، وتصغير ما صغره ويقول فى ذلك : " علامة المراقبة إثار ما آثر الله تعالى وتعظيم ما عظم الله تعالى ، وتصغير ما صغر الله تعالى "[2]

---

(١) محيى الدين ابن عربى ـ الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٦

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٨ طبعة صبيح .

الاحوال :ـ تتداخل مع مقامات السلوك عند صوفينا أحوال وهبية وبين الاحوال والمقامات تشابك وتشابه فإذا استقر الحال وثبت صار مقاما وقد عرفنا أن المقامات مكاسب والاحوال موهب وصوفينا يربط بين الحال والجبر واسقاط التدبير فيقول " لايكون للانسان من الاحوال إلا مايريد الله له ، وليس الانسان فى حاجة إلى أن يعلم ماهو هذا الذى إختاره له إذا كان الله قد يحكم ماهو كائن ، وهو المكون للأشياء ، وهو الذى يختار للانسان"(١) .

١ـ حال الانس :ـ يعتبر ذو النون أن حال الانس ثمرة من ثمرات الحب لله والشوق اليه وهو عنده حاله من الفرح تغمر السالك لقربه من الله ومطالعته الحاضر المكشوف واستنار قلبه بالفيوضات الالهية التى تشرق على قلبه من لدن الله تعالى . وهو عنده يعنى : " صفاء القلب مع الله والتفرد بالله والانقطاع عن كل شئ سواه "(٢)

والمتحقق بحال الانس فيما يرى ذو النون فإنه يشعر " باستلذاذ الخلوة ، واستيحاش الصحبة ، واستحلاء الوحدة "(٣) وهذا يشبه مانجده عند الغزالى فهو يرى من علامة الانس الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق ، والتبرم بهم والاستنارة بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضرة ، وحاضر فى سفره ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبةالذكر . كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى وصفهم (أى المتحققين بحال الانس) " هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما أستوعر المترفون وأنسوا بما

(١) أنظر أبونعيم الاصفهانى فى حلية الاولياء جـ٩ ص ٣٨٢ وأنظر أيضا د . محمد مصطفى حلمى . دائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذى النون جـ٤ ص ٤٢٥ .
(٢) السلمى ـ الطبقات ص١٠ ـ ابو نعيم الاصفهانى : خلية الاولياء جـ٩ ص٣٨٢
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

استوحش منه الجاهلون • صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى • أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة الى دينه "[٤] فمن تحقق بحال الانس لايأنس إلا بالله فلا يأنس بالخلق وفى رأى شيخنا آن من أستأنس بالخلق فهو بعيد عن الحضرة الالهية ويقول :" من أستأنس بالخلق فقد إستمكن من بساط الفراعنة ، ومن غيب عن ملاحظة نفسه فقد إستمكن من الاخلاص • ومن كان حظه فى الاشياء هو " أى الله " لايبالى ما فاته مما هو دونه.(أى دون الله) "[٢]

فحقيقةالانس استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمالحتى أنه إذا تجرد عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا قيل لبعضهم أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق الى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق • وهذا كلام مستغرق فى الفرح غير ملتفت الى مابقى فى الامكان من مزايا الالطاف[٣]

ويربط ذو النون كما هو واضح بين حال الانس والعزلة والخلوة فى قوله :" الانس بالله نور ساطع والانس بالخلق غم واقع "[٤] فالمأنس بالله يتمتع بأنواره أما المستأنس بالخلق فإنه يلحقه الغم لما قد يجر عليه الانس بهم من متاعب •

وللأنس عند شيخنا درجات أدناها أن يفقد المتحقق بحال الانس بالله شعوره بنفسه حتى أنه إذا القى فى النار وهو فى غمرة أنسه بالله فلا يغيب أهتمامه عن مطالعة لذة الانس بالله والاستمتاع بها فيقول فى ذلك :" أدنى منازل الانس أن يلقى فى النار (أى السالك) فلا يغيب همه عن مأموله[٥] ويكون ذلك لشدة استغراقه فى الله غير شاعر بما يحدث له

(١) الغزالى احياء علوم الدين جـ٤ ص ٣٣٠
(٢) السلمى الطبقات ص١٢ - محى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل٨٥ ظ
(٣) السلمى - الطبقات ص ١٢ والغزالى الاحياء جـ٤ ص ٣٣٠
(٤) السلمى الطبقات ص ١١ - الغزالى الاحياء جـ٤ ص ٣٣٠
(٥) السلمى الطبقات ص١٠

ويصيبه ويعلل علماء النفس ذلك بأن مستوى النشاط الذهنى أثناء ذلك يكون أقل تماسكا وجودة من مستوى نشاط الشخص العادى الضابط لنفسه وقد يكون التأمل قويا والمخيلة متوقدة وثابتة غير أن الافكار تكون فى الوقت نفسه متسلطة ملازمة يعجز الفرد عن تحويل مجراها وتوجيهها وعن أن ينقل إنتباهه الى مجال أخر (١)

٢ - حال الفناء والاتصال :- يعتبر حالّ الفناء عند صوفينا هو أقصى درجات القرب من الله التى يمكن أن يحظى بها الواصل الى الحضرة الالهية . ويحلل ذو النون حال الفناء فى الله والاتصال الروحى بينه تعالى وبين الواصلّ اليه بقوله :" إنك إن أطعته أفادك حبه وأدناك الى قربه ، وإذا أدناك الى قربه ثم لذذك بمناجاته أفناك بذكره ، وإذ أفناك بذكره أقعدك على مرآة سره . ثم روحك وفضلك ، وحكمك وأيدك ، ثم أوصلك بوصاله الى موضله فاتصلت بلا وصلة ، ووصلت بلا فصل . وهذا المقام العالى والمرتبة العظيمة وذاك فضل من الله يؤتيه من يشاء "(٢) .

فالصوفى الذى أطاع الله وتحقق بمنازل السلوك اليه ورَاضى نفسه وهيأقلبه للأتصال بالله وداوم ذكره بقلبه وروحه وصار محبوبه وموضع همه دون سواه أدناه الله الى قربه ولذذه بمناجاته وافناه بذكره ، وجل مرآة سره وأفاض عليه من المعارف الذوقية والانوار الالهية واطلعه على مالا يخطر على قلب بشر وبذلك يكون قد روحه وفضله وأيده وأوصله الى حضرته دون وصلة أو واسطة وصالا بلا إنفصال وهو أعلى الاحوال واعز المنازل والاحوال وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المخلصين .

وإذا كان شيخنا يقول :" ووصلت بلا فصل " فإنه لايعنى أن المتحقق بحال الفناء والاتصال يظل فى فنائه دائما بلا بقاء وإنما يعنى أن من وصل الى هذه الدرجة العظيمة فإنه

(١) د . يوسف مراد مبادئ علم النفس العام ط٤ ص ١٢٩

(٢) انظر منى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى معهد المخطوطات رقم ٤٢١ تاريخ .

يظل على اتصال قلبى وروحى بالله حتى بعد زوال حال الفناء وروجوعه الى البقاء . وحقيقة الفناء أن السالك الذى يستغرقه التفكر فى الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويصير الحق سبحانه هو المهيمن الوحيد على فكره أو كما يقول علماء النفس ... يبدأ بأن يكون العالم الخارجى على هامش شعوره ، وتسيطر فكرة الله على بؤرة شعوره ، ثم يستغرقه التفكر فى الله فيفنى عن العالم من حوله ثم يفنى عن نفسه وتكف جميع الافكار المناهضة لفكرة الله ، حتى تسيطر وحدها على كل مشاعره . فيقال أنه فنى عما حوله وفنى عن نفسه وبقى بالله . يوقول ذو النون : " من غيب عن ملاحظة نفسه فقد استمكن من الاخلاص "[1] أى اخلاص سره وقلبه لله تعالى وحده . والفانى فى الله يتلقى المعرفه النورانيه من لدنه تعالى فى لحظة فنائه وهذا ما سيتضح لنا عند الحديث عن المعرفة عند شيخنا .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٦ .

المعرفـــــة

١ - تمهيد : إتضح لنا فيما سبق كيف ينجح السالك في تطويع نفسه الامارة بالسؤ لنفســـــه المطمئنة عن طريق المجاهدات والرياضات العملية المختلفة وتخلية نفسه من الاخـــــلاق الذميمة وتحليتها بالاخلاق الكريمة عن طريق التحقق بالمقامات والاحوال الصوفية حتـــــى تصفو وتتطهر ويصير أهلا لتقبل المعرفة الذوقية القلبية عن الله سبحانه في حال الاتصـــال الروحي بين السالك الذى تحقق بالكمال الاخلاقي وبين الله ويقول ذو النون "مكاشفات القلـــوب بالاتصال ومكاشفات النفوس بالابعاد "(١) ونجد لدى ذو النون نظرية في المعرفة الاشراقيـــة قد تطورت بعد ذلك على يد من جاء بعده من الصوفية ويقول الاستاذ المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى : "إذا انتقلنا الى الناحية التيوزوفية الخاصة لهذا المذهب (أى مذهـــب ذى النون) الفينا له نظرية في المعرفة وآخرى في المحبة وكلتاهما تنطويان على كثير مـــــن المعانى الفلسفية التى ظهر لاول مرة في تاريخ التصوف الاسلامي عند ذى النون وكان ظهورها عنده في صورة ساذجة بسيطة ثم آخذت هذه الصورة تدق وتتضح رويدا رويدا على آيدى مـــــن تعاقب بعده من الصوفية بصفة عامة . حتى تهيأ لها من الدقة والوضوح والتمام أكبر حـــظ عند الصوفية المتفلسفين . أو الصوفية الذين وقع التزاوج في مذاهبهم بين التصوف والفلسفة الالهية وعلم الكلام من آمثال محيى الدين بن عربى ، وعمر بن الفارض ، ويحيى الســـهروردى المقتول ، بصفة خاصة وأود آن أكرر هنا ان تصوف ذي النون عامة ونظرية في المعرفة بوجـــه خاص تخلو من القول بالاتحاد أو غيرها من النظريات والشطحات . التى تخالف في ظاهرهـــا على الاقل ماجاء بالكتاب والسنة فهو كما سنرى في حديثه عن المعرفة الذوقية كان ملتزمـــا في كل أقواله .(٢)

---

(١) محى الدين بن عربى - الكوكب الدرى في مناقب ذى النون المصرى مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ١٤٢ التاريخ .

(٢) انظر مقال د. محمد مصطفى حلمى . بدائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذى النون جـ٤ ص٤٢٧

٢ - الوصول الى الله : - ويحدثنا شيخنا عن السالك الذى وصل الى أعلى الدرجات وتجاوز مراحل الطريق ثم له الوصال والاتصال ، فيتجلى له الله فى قلبه حال فناءه عن نفسه ويقول :" إن المريد إذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى فى سره "(١) ويتحقق الواصل الى الله بالمعرفة الذوقية فى حال الفناء وهى أعلى درجات الطريق الصوفى لايصل اليها إلا الكمل الذين أخلصوا لله وتجردوا فى سلوكهم الطريق اليه وفنوا أنفسهم فى التقرب اليه وتهيات قلوبهم وصفت نفوسهم وشحذت همهم فانعم الله عليهم بنعمة الوصال وكشف الله بصيرتهم وجلى مرآة قلوبهم فاشرقت عليها أنوار المعرفة الذوقية . يقول ذو النون عن العارفين :" عبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم ، وشربوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا برياح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة "(٢) وفى هذا النص يربط صوفينا بين المعرفة بالله معرفة قلبية ذوقية وبين الراحة النفسية للعارف فالعارفين على حد تعبيره قد وصلوا الى رياض الراحة فقد ربط ذو النون بين معرفة الله وبين سعادة العارف ويتضح ذلك من قوله :" العارف ينقلب فى ليلة ونهاره فى أربع روضات أنس الوحدة . وسرور المعرفة - وحلاوة الخدمة وخوف الفرقة "(٣) فالعارف بالله بأنس به تعالى ويسر ويسعد لمعرفته . ويجد حلاوة فى التعبد له وطاعته ويخشى الانفصال بعد الاتصال . ويذهب ذو النون الى أن العارف يزداد خشوعا كل يوم لان كل ساعة تمر عليه تقربه الى ربه اكثر ويقول :" العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب "(٤) ويرى أن العارف لاتلزمه حالة واحدة وانما عليه أن يلزم ربه فى جميع الحالات فهو يتصف على الدوام بمعرفة ربه معرفة

(١) انظر مقال د . بدائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذى النون ج٤ ص٤٢٧

(٢) انظر - محى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى مخطوط مصور بمعهد المخطوطات ٤٢١ تاريخ وانظر أيضا - الغزالى مكاشفات القلوب ص٦٠

(٣) انظر - محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى معهد ٤٢١ تاريخ

(٤) المرجع السابق وانظر السلمى : طبقات الصوفية ص١١

يقينية لا يساوره فيها أدنى شك ويقول : " أن العارف لا يلزمه حالة واحدة وإنما يلزم ربه في الحالات كلها " (١) . وعلامة العارف عند شيخا ثلاثة هي : " الا يطفيء نور معرفته نور ورعه ، والا يعتقد باطلا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، وألا تحمله كثره نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله " (٢) وهذا النص يوضح أن صوفينا يحرص دائما على التمسك بظاهر الشرع في العمل والاعتقاد . والواصل الى مقام المعرفه يصير صوفيا كاملا عارفا بالله يتصف بالاخلاق الربانية ويكون حسن العشرة قوى الاحتمال شديد الصبر في معاملته مع الآخرين ويقول : " معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا باخلاق الله " . (٣) ويقول أيضا : " ادب العارف فوق كل أدب لأن معروفه مؤدب قلبه" (٤) أى أن الواصل الى معرفة الله يكون أكثر الناس أدبا ، لأن ما فاض على قلبه من المعارف النورانيه أدب قلبه وجمله بالكمال الأخلاقى .

٣ - <u>حد المعرفة وموضوعها</u> : يحد ذو النون المعرفة بقوله : " النظر في الامور كيف دبرها ، وفي المقادير كيف قدرها ، وفي الخلائق كيف خلقها " (٤)

وموضوع المعرفة الصوفية عند شيخنا هو معرفة الله تعالى - معرفة ذاته وصفاته واسمائه وهي معرفة لا تتثنى لاحد الا بعد طريق طويل من المجاهدة والرياضة كما هو واضح فيما سبق . ويوضح ذو النون أن معرفة الله معرفة ذوقية قلبية لاتعنى معرفته تعالى معرفة إحاطة فتلك معرفة ليست ممكنة لأحد من البشر فإنه سبحانه فوق كل إحاطه ويقول :" أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه " (٥)

---

(١) محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذو النور المصرى ل ١٢٧

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة .

(٣) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٠٩

(٤) أبو نعيم الاصبهانى - حلية الاولياء جـ ٩ ص ٣٣٩ .

(٥) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٠٥ .

٤ — أدوات المعرفة ومناهجها : تختلف أدوات المعرفة ومناهجها عند ذى النون باختلاف درجة العارفين ونوع المعرفة . فالمعرفة عنده على ضروب ثلاثة : — معرفة عامة المسلمين وهى معرفة التوحيد ، ومعرفة المتكلمين والحكماء الذين يستندون الى الحجة والبيان والبلاغة، ومعرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله معرفة يقينيه قلبيه لايتطرق اليها ادنى شك : ويقول : " معرفة الله على ثلاثة أوجه : — معرفة التوحيد وهى لعامة المؤمنين . والثانية معرفة الحجة والبيان وهى للعلماء والحكماء والبلاغاء . والثالثة : معرفة صفات الوحدانية والفردانية وهى لأولياء الله وأصفيائه " (١) .

وعلى ذلك فإن للمعرفة بالله عند صوفينا درجات ثلاثة ، ومناهج ثلاثة أدناها معرفة العوام وهى تستند على الخبر المنزل والتوحيد دون استدلال أو طلب حجة . وأوسطها مرتبة معرفة الحكماء والفلاسفة وهى أرقى من معرفة العوام وتستند على منهج الاستدلال والبرهان العقلى بالنظر فى المخلوقات والاستدلال منها على معرفة الخالق . أو الاستدلال من وجود الصنعة على وجود الصانع وهى أدنى من المعرفة الثالثة وهى معرفة الخاصة من المؤمنين وهى أرقى أنواع المعرفة وتستند على منهج الشهود الذوقى والمعرفة من النوع الثالث لايحتاج العارف للتحقق بها الى واسطة من حس أو عقل وانما هى تشرق على قلبه من لدن الله تعالى فى حال الفناء فهى إدراك ذوقى مباشر وهى أكثر أنواع المعرفة يقينا . يقول ذو النون فى اداة المعرفة القلبية الذوقية عندما سئل بم عرف العارفون ربهم فقال ما نصه : " إن كان بشيء فقطع الطمع ، والاشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها ، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم أنهم وصلوا بُعد الى الله بالله . (٢)

---

(١) ابو نعيم الاصبهانى : حلية الأولياء جـ ٩ ص ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق وانظر ايضا — الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ١٤٢ .

والحق أن صوفينا يفرق فى معرفة الله بين السالك الذى ينتهى به الطريق الطويل الذى سلكه بالمجاهدات والرياضات والتحقق بالمقامات والاحوال حتى أن يصل الى معرفة الله معرفة قلبية الهامية من لدنه تعالى • وبين المجتبى أو المجذوب الذى يصطفيه الله دون مجاهده ودون السير فى الطريق الصوفى • فيقذف فى قلبه بنور المعرفة فيطلعه الله تعالى على ذاته دون كسب منه أو اجتهاد • ولذا عندما أجاب عن كيفية معرفة الله قال : اذا كان بشيء فبقطع الطمع •••• الخ " • فهذا يدل على أن معرفة الله يمكن التحقق بها دون شيء أودون اجتهاد أو مجاهدة • كما حدث له هو شخصيا • ولذلك قال : " ثم انهم وصلوا بعد الى الله بالله " • وعندما سئل كيف عرفت ربك ؟ فقال : " عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى " (١) • وقد أشرت فى أول البحث عن سبب توبته وكيف اصطفاه الله واطلعه على وجوده ثم ، بعد ذلك سلك الطريق الصوفى •

وقد كان لابن عطاء الله السكندرى الصوفى المصرى حديثا طويل عن السالكين والمجذوبين • وسمى طريق المجذوبين بطريق التدلى وطريق السالكين بطريق الترقى (٢) •

وحديث ذو النون عن أنواع المعرفة ومناهجها وأدواتها يشبه ما نجده عن الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين حيث قال : " إن الايمان والمعرفة ثلاثة مراتب : المرتبة الأولى ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض والثانية ايمان المتكلمين والفلاسفة وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبه من درجة ايمان العوام • والثالثة ايمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين " (٣) •

كذلك ربط ذو النون بين المعرفة والراحة النفسية للعارف وسروره وسعادته وهو

---

(١) ابونعيم الاصبهانى حلية الاولياء جـ ٩ ص ٣٥٣ •

(٢) د • ابو الوفا الغنيمى التفتازانى - ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ط ٢ ص٢٧٨ - ٢٨٤ •

(٣) الغزالى : الاحياء جـ ٣ ص ١٧ •

يشبه ما نجده عند الغزالى الذى جاء بعده بنظرية متكاملة فى السعادة الناجمة عن معرفة الله فربط بين معرفة الله وبين سعادة الانسان الحقة • وهو يرى أنه كلما كانت درجة المؤمن فى معرفة الله أعلى كلما شعر بسعادة أعمق • (١) كما ربط المعرفة بالتوحيد فيرى أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج وأنه ليس فى السماوات العلى ولا فى الارضين السفلى مدبر غير الله " (٢) وهو كان ليقين معرفته بالله يرى ان الله فى كل شىء ويسمعه فى كل صوت فهو يقول : " الهى ما أصغى إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، الا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء ••• الهى لاتترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته • ولا بابا إلا فتحته • حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بالرضا منك فؤادى وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختار ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولاياتك ومضربا فسيحا فى ميدان طاعتك " (٣) •

وهكذا نجد عند شيخنا نظرية متكاملة فى المعرفة لم يكن لها نظير عند من سبقه من أهل الطريق • ويقول فى ذلك الاستاذ الدكتور ابوالوفا التفتازانى : " وواضح أن هذه الأفكار المتعلقة بنظرية المعرفة ليس فيها بساطة تفكير الزهاد فى القرنين الأول والثانى وهى تمثل اتجاه التصوف إلى منهج أكثر دقة وعمقا ، وان شئت قلت هى تحول واضح من الزهد الى التصوف من حيث قوة فلسفة ابستمولوجية ذلك أن تقسيم ذو النون للمعرفة يتضمن القول بثلاث مناهج للمعرفة فهناك منهج النقل الذى يدرك العوام بواسطته التوحيد • ومنهج العقل الذى يعتمد عليه الحكماء والفلاسفة ومن نحى نحوهم وهو الاستدلال ومنهج الذوق المباشر وهو منهج الاولياء والصوفية •" (٤) •

---

(١) الغزالى ـ الاحياء ـ جـ ٣ ص ١٧ •

(٢) ابونعيم الاصبهانى حلية الاولياء جـ ٩ ص ٣٢٦ •

(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذوالنون المصرى ل ١٤٥

(٤) د • ابو الوفا الغنيمى التفتازانى : مدخل الى التصوف الاسلامى ط ٢ ص ٩٤ •

ولا شك أن نظرية ذى النون فى المعرفة قد تأثر بها الصوفية اللاحقون عليه كما هو واضح عند الغزالى وغيره من اهل الطريق ٠

خاتمة البحث

إتضح لنا من هذا البحث النتائج التالية :ـ

١ ـ ان للصوفى المصرى ذوالنون من ابرز صوفية القرن الثالث الهجرى ، مارس التصوف عملا ، كما كان له مذهبه النظرى فى التصوف ٠ وهو من الرواد الاوائل الذين ادخلوا على معانى الزهد التى كانت سائدة بين زهاد القرنين الاول والثانى للهجرة معانى جديدة تحول على اثرها الزهد الى تصوف أو تحولت بعدها الحياة الروحية فى الاسلام من حياة ذات طابع عملى اخلاقى الى مذهب نظرى يرسم الطريق الصوفى امام السالكين ٠

٢ ـ ان مذهب ذو النون الصوفى لا يخلو من الانظار الفلسفية غير أنه يخلو تماما من الشطحات والعبارات والنظريات الخارجة عن ظاهر الشرع ٠ فتصوفه تصوف سنى ملتزم بالكتاب والسنه ٠

٣ ـ انه كان فى حياته متهم بالزندقة من جانب بعض الفقهاء غير انه صبر على موقفهم منه و قد ظهرت ولا يته فى حياته وعند وفاته ٠

٤ ـ كان له مصنفات فى العلوم كالطب والكيمياء وغيرها وفى العلوم النظرية كعلم الكلام والادب والتصوف والحديث ٠

٥ ـ ان مصنفاته منتشرة فى مكتبات العالم وفى حاجة الى من يجمعها ويحققها ويخرجها الى النور ٠

٦ ـ كان من اوائل من تكلموا فى المقامات والاحوال الصوفية بشكل واضح مفصل ورسم الطريق الصوفى للسالكين ابتداء من مجاهدة النفس بالرياضات العملية والروحية

للوصول الى المعرفه الذوقيه التى هى غاية الطريق الصوفى فكان له نظرية فى المعرفة ونظرية فى المحبه .

٧ - ان مذهبه الصوفى يحمل عناصر نظرية لها قيمتها الفلسفية وعناصر عملية لها قيمتها الاخلاقية والتربوية وهو يُذكر متفرقا فى كتب التراجم والطبقات وعلى الباحث أن يستجمع شتات مذهبه من تلك المراجع ويؤلف بينها .

٨ - اتم عصره بازدهار العلوم والمعارف على اختلاف موضوعاتها وكان لذلك اثره الواضح على فكره وثقافته فكان عصره حافلا بارباب العلم من الفقهاء والمحدثين والصوفية الذين أخذ عنهم .

٩ - كان له مصنفات فى الحديث وكان عالما به وراويا له وإن كان لم يشتغل به الى الحد الذى يجعله فى عداد المحدثين وقد بلغ احترامه للحديث بان قال ان للحديث رجالا وبناء على ذلك لم يعتبر نفسه من المحدثين رغم ما له فيه من مصنفات .

١٠ - تاثر ذوالنون باصحاب الطرق الذين سبقوه والذين عاصروه كما كان لتأثيره الكبير فيمن عاصره منهم وفيمن جاء بعده .